من موضوعات سور القرآن الكريم

« ٢٠-٢١ »

سبيل السعادة

في سورة طه

كلمة التوحيد وأمة التوحيد

في سورة الأنبياء

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

« ٢٠ »

سُبُلُ السَّعَادَةِ

فِي سُورَةِ طٰه

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدار الشّاميّة
بيروت

الطّبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم النبيينّ سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فما فتىء الناس منذ فجر وجودهم يبحثون عن سبيل سعادتهم وراحتهم على هذه الأرض، وإن الجهد البشري بأكمله موجه، كما يظنون، إلى تحقيق هذا الهدف، ومع ذلك لا نراهم يقتربون منه، بل يزدادون بعداً عنه، فكثير من الناس كانوا ولا زالوا يعانون من الشقاء والتعاسة والبؤس والحرمان، حتى غلب اليأس على كثير من الناس، واصطبغت نظرتهم إلى الحياة بالتشاؤم، ورأوا أن السعادة في هذه الحياة سراب خادع لا وجود لها في عالم الحقيقة والواقع، ولعل ازدياد نسبة المنتحرين ومرضى الأعصاب، وازدياد تناول المسكرات والمخدرات والمهدئات، تؤكد مدى التشاؤم والشعور بالفشل والخيبة عند كثير من الناس.

فهل السعادة سراب لا وجود لها، أم أن لها حقيقة ووجوداً، وثمة خطأ جعل أكثر الناس لا يسلكون الطريق الصحيح السوي المؤدي إليها؟.

الله سبحانه الخالق العظيم عليم وحكيم ورحمن رحيم وبرٌّ كريم، ما خلق الإنسان وميزه على غيره من المخلوقات، وسخّر له ما في الأرض والسماوات، من أجل أن يشقى في حياته، ما خلقه سبحانه إلا ليسعده ويرحمه ويشرفه بعبادته وطاعته، ولهذا أنزل عليه كتبه وأرسل إليه رسله، ليبينوا له الطريق الذي يسعده في حياته الدنيا والآخرة، وما شقي الناس إلا لبعدهم عن هذه الطريق، فشقاء الإنسان نابع من اختياره وكسبه.

وقد اهتمت سورة طه بإبراز هذا المعنى، وكأن الله سبحانه وتعالى أنزلها لنأخذ بيد الإنسان التائه الشارد برفق ولطف إلى طريق سعادته وراحته.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يثبتنا على الطريق وأن يوفقنا في السير عليه حتى نموت ونحن على أكمل حال.

وقد جاء الكتاب بحمد الله تعالى في مقدمة وفصلين وخاتمة:

المقدمة للقرآن الكريم وعظمته، وعظمة منزله سبحانه.

الفصل الأول: لقصة موسى عليه السلام مع فرعون.

الفصل الثاني: لقصة موسى عليه السلام مع السامري، وقصة آدم عليه السلام مع الشيطان.

الخاتمة: للتعقيب على ما تقدم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

عبد الحميد محمود طهماز

مكة المكرمة

المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة

التابع لرابطة العالم الإسلامي

٨/ ١١/ ١٤١٠ هـ

١/ ٦/ ١٩٩٠ م

مَوضُوع السّـُورَة

تدور أفكار ومعاني سورة طه في النقاط التالية:

ـ الله سبحانه وتعالى متّصف وحده بصفات الكمال والجلال.

ـ الإنسان بضعفه وعجزه لا يستغني بنفسه، لا بدّ له من هاد يهديه الطريق ويرشده إليه، ويمده أيضاً بأسباب وجوده وسعادته.

ـ الله سبحانه الرحمٰن الرحيم أعطى الإنسان كل أسباب سعادته وراحته في الدنيا والاخرة.

ـ شقاء الناس نابع من إعراضهم عن طاعة ربهم وعبادته.

ولقد أبرزت الآيات الأولى في السورة النقطة الأولى، واهتمت بذكر بعض صفات الجلال والكمال التي يتصف بها الحق جلّ وعلا.

وقصة موسى مع فرعون أبرزت النقطتين الثانية والثالثة. فموسى عليه السلام كان في أشد الحاجة إلى معونة الله تعالى وهدايته عندما ضل الطريق في صحراء سيناء. والله سبحانه لم يتخل عنه، ناداه وأوحى إليه وأرشده وأرسله إلى فرعون ليصحح له طريق سيره بعد أن ضل وطغى، ثم بينت الآيات فواضل إحسانه سبحانه وسوابغ نعمه على عبده موسى السابقة على الرسالة واللاحقة.

ـ وأبرزت قصة موسى عليه السلام مع السامري كيف يشقى الإنسان، فالشقاء نابع من كسب الإنسان واختياره وتسويل نفسه، وأكدت

على هذه الحقيقة من خلال الجانب الذي عرضته الآيات من قصة آدم مع الشيطان.

وجاءت الآيات في خاتمة السورة منسجمة تماماً مع أولها، تؤكد أن سعادة الإنسان في عبادة ربه وطاعته وأن شقاءه في إعراضه عن ربه سبحانه وشروده عن ساحة فضله ورحمته، وأنه سبحانه قد أقام الحجة على الخلق بإنزال القرآن الكريم وبعثه الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد جاءت أيضاً مباني كلمات السورة منسجمة مع معانيها العذبة الرقيقة. فمن أراد أن يستشعر مدى رحمة الله تعالى بالإنسان وفضله وإحسانه عليه فليقرأ سورة طه، ومن أراد أن يتذوق عذوبة تلاوة القرآن ونداوتها ورقتها فليقرأ سورة طه.

وإذا ما شعرت بقسوة في قلبك، ووحشة في نفسك، وجفوة في طبعك، فاقرأ سورة طه.

فهي في معانيها ومبانيها تتجه إلى إسعاد الإنسان، وجعله يتذوق طعم اللذة والسعادة حتى في تلاوتها، فلا تفارقه لذة تلاوتها منذ أن تطالعه آياتها الأولى ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى...﴾ حتى آخر كلمة فيها: ﴿فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى﴾.

إن فيها الصراط السوي الهادي إلى سعادة الدارين والذي أسأله سبحانه أن يهدينا إليه ويثبتنا عليه.

الفصل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

طـه [١]

يقال فيها ما قيل في غيرها من الحروف المقطعة النورانية، وقد تقدم القول فيها في عدد من كتب هذه السلسلة المباركة.

وزاد المفسرون هنا أن ﴿طه﴾ كلمة مفيدة، ومعناها: يا رجل، أو فعل أمر بالوطء، طأ، فقلبت الهمزة هاء، وذلك لما روي أن النبي ﷺ كان يقوم في تهجُّده على إحدىٰ رجليه، فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه معاً[١].

قال ابن كثير رحمه الله: روي عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾: يا رجل، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة والضحاك، وأسند القاضي عياض في كتابه الشفاء، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل الله ﴿طه﴾ يعني طأ الأرض يا محمد[٢]. وذكر هذه الرواية أيضاً ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري[٣].

وإن صحت هذه الرواية، فلعله ﷺ كان يراوح بين قدميه بسبب طول قيامه في تهجده بالليل، وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان

---

(١) انظر تفسير النيسابوري ١٦/٧٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٤٦٩.

(٣) انظر فتح الباري ٨/٤٣٢.

يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»[1].

وعن المغيرة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال:

«أفلا أكون عبداً شكوراً»[2] قال ابن حجر: وفيه ـ أي الحديث ـ: أن الشكر يكون بالعمل كما يكون باللسان، كما قال الله تعالى ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ وفيه ما كان النبي ﷺ من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه[3].

والأولى أن ﴿طه﴾ من الحروف المقطعة، لأنها رسمت في أول السورة كبقية الحروف، وقرئت مثلها على نمط التعددية وأسلوبها[4].

القرآن سعادة لا شقاء

﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [٢] لا شك أن الخطاب للنبي ﷺ فهو الذي أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم، والمعنى المراد: ما أنزلنا عليك يا محمد ـ ﷺ ـ القرآن لتتعب، فإن الشقاء شائع في ذلك المعنى، ومنه أشقى من رائض مهر[5] هكذا قال بعض المفسرين.

وأصل الشقاء في لغة العرب: العناء والتعب، ومنه قول أبي الطيب:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[6]

---

(١) صحيح البخاري في التفسير رقم ٤٨٣٧.

(٢) المرجع نفسه رقم ٤٨٣٦.

(٣) فتح الباري ٣/١٥.

(٤) انظر تفسير أبي السعود ٦/٣.

(٥) تفسير أبي السعود ٥/٣.

(٦) أضواء البيان ٤/٤٠١.

وما قيل من أن مراد الآية تعبه ﷺ بسبب طول قيامه بالقرآن الكريم مستبعد، فقد أمر ﷺ بطول القيام، قال تعالى:

﴿يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا﴾[1]. وقال أيضاً: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾[2].

وكان ﷺ يشعر براحة ولذة في صلاته وقيامه كما سيأتي معنا، والتعب الذي كان يعتريه ﷺ هو من قيامه بأعباء تبليغ الدعوة، ومواجهته لعناد المشركين وأذاهم، ومن حرصه أيضاً على هدايتهم وحزنه حزناً شديداً بسبب إعراضهم وعنادهم، حتى أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾[3].

وقوله أيضاً: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾[4].

وقوله أيضاً: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾[5].

فقوله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ تكريم للنبي ﷺ ومواساة وحسن خطاب.

ويمكن أن يكون المراد من الشقاء المعنى المضاد للسعـادة، وهو التعاسة والشدة والمحنة والضلال، وقد أورد القرآن الكريم كلمة الشقاء بهذا المعنى في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد * فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير

---

(١) المزمل: الآيات ١ ـ ٤.
(٢) الإسراء: الآية ٧٩.
(٣) فاطر: الآية ٨.
(٤) الكهف: الآية ٦.
(٥) الشعراء: الآية ٣.

وشهيق﴾[1] وبالمقابل قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها..﴾[1] الآية.

والآية بهذا المعنى ترد على أعداء الإسلام الذين يفترون عليه، ويصدون الناس عنه بزعمهم أنه يسبب الشقاء والعناء لهم، وأنه لا يتفق مع تطور حياتهم، ولا يلبي حاجاتهم، فيوقعهم بالضيق ويحرمهم من مُتع الحياة ومباهجها ولذائذها... إلى آخر ما في جُعَبهم من الأكاذيب والافتراءات التي يحاولون إلصاقها بالإسلام وشريعة القرآن.

هذه الأكاذيب يرددها أعداء الإسلام في العصر الحاضر، وهي ليست جديدة، فقد كان المشركون في مكة المكرمة يرددونها أيضاً، ويواجهون بها النبي ﷺ منذ فجر الدعوة، ويقولون: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون[2].

سبيل السعادة

فالقرآن الكريم ما أنزله الحق سبحانه إلا لسعادة الناس، ولا سعادة لهم إلا باتباع منهجه وتطبيق شريعته، وكلما نأى الناس عن شريعة القرآن ازداد شقاؤهم، وعظم بلاؤهم، تماماً كما أخبر العليم الحكيم في كتابه الكريم: ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾[3].

فالله سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم، وما أنزل عليهم كتبه وأرسل إليهم رسله إلا رحمة بهم، لأنه جلَّ وعلا الرحمٰن، ولعل تكرر الاسم الكريم ﴿الرحمٰن﴾ في سورة طه، فيه إشارة إلى هذه الحقيقة، فسبيل

---

(١) هود: الآيات ١٠٥ ـ ١٠٦ و١٠٨.

(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٤٦٩.

(٣) الأنعام: الآية ٢٦.

سعادة الناس أفراداً وجماعات، في الدنيا والآخرة، في منهج القرآن الكريم وشريعته، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ [٣] قال قتادة: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى لا والله ما جعله الله شقياً، ولكن جعله رحمةً ونوراً ودليلاً إلى الجنة.

ذكر إمام المفسرين الطبري هذا الأثر في تفسيره ثم قال: حدَّثنا سعيد عن قتادة: قوله ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ وإن الله أنزل كتبه وبعث رسله رحمةً رحم بها العباد، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر له، أنزل الله فيه حلاله وحرامه فقال: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى﴾ [٤][1].

والعلى: جمع العليا، تأنيث الأعلى، وفي وصف السماوات بها دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها، مما يدل على تعظيم شأن القرآن الذي أنزله خالق الأرض والسماوات العلى. فلا يمكن أن يكون القرآن الكريم سبباً للشقاء والتعاسة، بل هو سبيل السعادة وأثر الرحمة والحكمة، لأنه تنزيل الحكيم العليم الرحمٰن الرحيم خالق الأرض والسماوات العلى.

كمال صفاته جلَّ وعلا

وصفات الكمال التي يتصف بها صاحب الرسالة لا بدّ أن يظهر آثارها في رسالته، والمرسل هو الله جلَّ وعلا المتصف بكل صفات الجمال والكمال والمنزه عن كل صفات النقص، تباركت أسماؤه، وتسامت صفاته وتقدست ذاته.

﴿الرحمٰن على العرش استوى﴾ [٥] أي: هو الرحمٰن، منزل القرآن، فإنزال القرآن من آثار رحمته جلَّ وعلا، كما في قوله سبحانه: ﴿الرحمٰن *

(١) تفسير الطبري ١٦/١٠٤.

علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان﴾[1] فلا يمكن أن يكون نزوله سبب تعب وعناء وشقاء، بل هو سبيل كل سعادة وهناء.

وقوله سبحانه بعد ذلك ﴿على العرش استوى﴾ من صفات كماله جلَّ وعلا، من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل[2].

﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ [٦] أي: جميع الكائنات له جلَّ وعلا، فهو خالقها ومالكها، وهي في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته وإرادته وحكمته، من أعظم أجرامها التي في السماوات إلى أصغر ذراتها التي في باطن طبقات الأرض وفي داخل ثراها.

والثرى: هو التراب الندي الذي في أعماق الأرض.

ومن صفات كماله سبحانه وجلاله كمال علمه، ولهذا قال سبحانه:

﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ [٧] ولا شك أن الذي يعلم السر وأخفى يعلم كل ما يسعد الإنسان ويصلح له في الدنيا والآخرة، والسر: ما أسره الإنسان إلى غيره، وأخفى منه ما أخطره بباله من غير أن يتفوه به أصلاً، ويمكن أن يكون ما أخطره الإنسان بباله ولم يتفوه به، هو السر، وأخفى منه ما يكون في ساحاته اللاشعورية التي لا تخضع لإدراك صاحبها ولا سلطان له عليها، والتي تظهر أحياناً وتطفو على ساحة شعوره وإدراكه دون إرادة منه ومن غير استجلاب لها، فكم من أسرار في أعماق نفس الإنسان غائبة عن ذاكرته، ولا يستطيع تذكرها مهما بذل من جهد، بل تبقى مستقرة في أعماق نفسه، وقد يموت صاحبها وتدفن معه في طيات التراب، لا يعلمها أحد سوى الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى.

---

(١) الرحمن: الآيات ١ ـ ٤.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٠.

فواجب الإنسان الأول أن يذعن لربه ويخضع له وينقاد لـدينه وشرعه، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون، وهو المتصف بصفات الكمال وحده ﴿الله لا إله إلا هو﴾ لا معبود بحق إلا هو جلَّ جلاله، لأنه هو وحده المتصف بصفات الكمال والمنزه عن صفات النقص، فلا يستحق العبادة سواه، وكمال شريعته من كماله جلَّ وعلا فهي سبيل السعادة، فتمسكوا بأمره، وانقادوا لشرعه، وسيروا على منهجه، فهو المعبود وحده الذي لا تصلح العبادة إلا له، ولا تصلح حياتكم إلا بعبادته وطاعته.

كمال أسمائه سبحانه

﴿له الأسماء الحسنى﴾ [٨] الدالة على كماله وصفاتـه، ولا حد لكماله جلَّ وعلا، ولا حصر لصفاته سبحانه، ولهذا فإن أسماءه الحسنى لا حد لها ولا عد، فمن أسمائه الحسنى ما بيّنه سبحانه في كتابه وسنّة نبيّه ﷺ، وهي الأسماء التي يجب أن نذكره بها وندعوه بها، كما في قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ فلا ندعوه بغيرها، ولا نذكره أيضاً إلا بها ﴿وذروا الـذين يلحدون في أسمـائه سيجـزون ما كانوا يعملون﴾(١).

ومن أسمائه الحسنى ما استأثر سبحانه به، ولم يعلمه أحداً من خلقه دل على ذلك ما جاء في بعض الأدعية المأثورة:

«أسـألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في مكنون الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي وجَلاء همي وغمي»(٢).

وكما لا يجوز أن نذكره سبحانه وندعوه بغير أسمائه الحسنى، كذلك

---

(١) الأعراف: الآية ١٨٠.

(٢) ذكره كاملًا في تيسير الوصول، وقال: أخرجه رزين ٢/٧٦.

لا يجوز أن نتقرب إليه بغير ما شرعه لنا، وبيّنه في كتابه وسنّة نبيّه ﷺ، فهما سبيل السعادة، فمن أراد الله تعالى به خيراً هداه إلى دينه وعلمه شـريعته، كما جاء في الحديث الشريف عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله المعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»[1].

ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين ويتعلم أحكامه وشرائعه ما أراد الله تعالى به خيراً، وقد أخرج حديث معاوية من وجه آخر ضعيف أبو يعلى، وزاد في آخره: «ومن لم يتفقه في الدين لم يبال الله به» والمعنى صحيح كما قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله[2].

فمصدر شقاء الإنسان نابع من إعراضه عن دين الله وشرعه، وجهله وسوء فهمه، فالله سبحانه ما خلق الخلق ليعذبهم ويشقيهم، ما خلقهم إلا ليعمروا الأرض بطاعته وعبادته، ويسعدوا بفضله ورحمته، وما من شقاء يصيبهم إلا بسبب إعراضهم عن طاعته وعبادتـه، كما قال سبحانه ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[3].

وهو عين ما قررته آيات سورة طه في آخرها عند قوله تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ كما سيأتي معنا.

---

(١) صحيح البخاري في العلم رقم ٧١.

(٢) انظر فتح الباري ١/١٦٥.

(٣) الشورى: الآية ٣٠.

قصة موسى وفرعون

تَمْهِيد

ثم ساقت الآيات الدليل الواقعي على المبدأ الذي قررته فيما سبق بعرضها حلقات ووقائع من قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولًا، ثم مع السامري ثانياً.

ومن الملاحظ أن قصة موسى التي ذكر سبحانه بعض حلقاتها وأحداثها في عدد من سور القرآن الكريم، قد عُرضت في سورة طه بأسلوب متميز عن بقية السور التي عُرضت فيها، كما يلاحظ أيضاً أن سورة طه انفردت بذكر بعض الوقائع والأحداث في قصة موسى لم تذكر في غيرها من السور، كما سيأتي معنا، ولهذه الوقائع التي انفردت بها السورة صلة كبيرة بموضوعها الأساسي، الذي بقي بارزاً من خلال أحداث القصة التي غطت أكثر آيات السورة.

أعظم حوادث القصة

ظهر الأسلوب المتميز لعرض قصة موسى منذ بدايتها في سورة طه، فلم تُعرض القصة حسب التسلسل الزمني لحوادثها، بل بدأت الآيات القصة بعرض وقائعها من الواقعة التي تُعد بحق أعظم حوادث القصة وأخطرها، وهي واقعة نزول الوحي على موسى عليه السلام وتكليم الحق سبحانه له، وتشريفه بالنبوة، وتكليفه بالرسالة، هذا الحدث أعظم أحداث القصة وأخطرها، إذ كان له أكبر الآثار وأعمقها في حياة موسى

عليه السلام خاصة، وفي حياة بني إسرائيل وتاريخهم عامة، وانعكست آثاره أيضاً على المسيرة التاريخية والحضارية للمنطقة كلها.

ضعف وافتقار وحيرة

كان موسى عليه السلام عائداً من بلاد مدين إلى مصر عن طريق صحراء سيناء، ومعه أهله، ويظهر لنا من خلال الآيات الكريمة أنه يعاني في أثناء رحلته من ظروف صعبة وشاقة، فالليلة شاتية باردة، والظلام دامس وقد ضل الطريق وتاه عن المقصد، وأهله، كما تذكر الروايات، كانت تعاني من آلام حمل ومخاض، وهي في أمس الحاجة إلى المأوى والفراش الدافىء والماء الساخن، وحاول موسى أن يوقد النار بالوسائل المعروفة في ذلك الزمن، فلم يتمكن، وأخذ يتلفت حوله بحثاً عن المأوى والدفء، بينما كانت الريح الباردة تلسع وجهه، والظلام الدامس يغشي بصره بحجب كثيفة سميكة تحجب عنه أقرب الأشياء منه.

إن موقف موسى في ظروفه هذه المحيطة به، يمثل الإنسان بضعفه وعجزه وحيرته، وشدة حاجته وافتقاره إلى معونة ربه وهدايته. فلولا أن الله الرحمٰن خالق الإنسان، سخَّر له ما سخر في السماوات والأرض من أسباب الحياة، ما استطاع الإنسان العيش، وما تمكن من إنشاء حضارة وعمران.

فالفضل لله تعالى أولاً وآخراً، خلق الإنسان، وأعطاه كل أسباب الحياة التي يحتاج إليها، قال سبحانه: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾[1] وقال أيضاً: ﴿وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[2].

---

(١) إبراهيم: الآية ٣٤.

(٢) الجاثية: الآية ١٣.

كما أن الإنسان بحاجة أيضاً إلى هادٍ يهديه الطريق الذي يوصله إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وبدون هذه الهداية يظل الإنسان تائهاً، يضرب في صحراء الحياة ضرب عشواء، فالتمكين المادي لا يكفي وحده لسعادة الإنسان لا بدّ له من منهج يضبط سلوكه، ومن شريعة يسير على هدى أحكامها تبين له الطريق القاصد، وتنقذه من حيرته وضلاله، وتوضح له مقصده وحكمة وجوده، فتكون له بمثابة المصباح الكاشف الذي يبين له حقيقة حياته وغاية مسيرته وسعيه وجهده.

تلك هي حال موسى عليه السلام، إنسان تائه في الصحراء، في أشد الحاجة إلى معونة ربه وهدايته، وهو سبحانه الذي لا إله إلا هو الرحمٰن الرحيم العليم الحكيم، يعلم أحواله وحاجاته وأسباب سعادته وهدايته.

آنست نارا

ولمع نور النار من خلال حجب الظلام، فتبددت الوحشة، وسرى الأنس في داخل النفس، قال تعالى:

﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً﴾ جاء في الروايات أن موسى عليه السلام استأذن شعيباً في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله، فولد له ابن في الطريق في ليلة مظلمة مثلجة، وقد ضل الطريق، وتفرقت ماشيته، ولا ماء عنده، وقدح فصلد[1] زنده، فرأى عند ذلك ناراً في زعمه، وكان نوراً[2].

﴿فقال لأهله امكثوا﴾ أي: أقيموا في مكانكم.

﴿إني آنست ناراً﴾ أي: رأيت ناراً، أدخلت رؤيتها الأنس إلى قلبي فبددت ما فيه من وحشة وحيرة، فالإيناس: إبصار ما يؤنس به، وبينت

(١) فصلد: أي صوّت ولم يقدح ناراً.

(٢) تفسير النسفي ٤/١٨٨.

الآيات في غير سورة طه مكان هذه النـار، قال تعالى: ﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً﴾ الآية[1] ﴿لعلي آتيكم منها بقبس﴾ أي: لعلي آتيكم منها بشعلة من نار مقتبسة على رأس قطعة حطب، وهذا يدل على أنه كان وأهله محتاجين إلى دفء النار، وقد جاء هذا المعنى مصرحاً به في قوله تعالى: ﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلَّكم تصطلون﴾[2].

﴿أو أجد على النار هدى﴾ [١٠] أي: ولعلي أيضاً أجد عند النار من يدلني على الطريق، وهذا يدل على أنه عليه السلام قد ضل الطريق.

في مقام النداء والنجوى

﴿فلما أتاها﴾ رأى عجباً، وجد نـاراً بيضاء في داخلهـا شجرة خضراء، ولا شك أنه منظر عجيب مذهل، وقد ذكرت الشجرة في قوله تعالى: ﴿فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾[3].

وصحا موسى عليه السلام من ذهوله عنـدما سمـع نداء الحق سبحانه:

﴿نودي يا موسى [١١] إني أنا ربك﴾ أعلمه سبحانه بنفسه، فالذي يناديه هو ربه الذي خلقه ورباه، ثم أصدر له أمره الأول:

﴿فاخلع نعليك﴾ وبين له الحكمة من هذا الأمر فقال:

﴿إنك بالواد المقدس﴾ المطهر الذي اسمه ﴿طوى﴾ [١٢] أمره الله تعالى بخلع حذاءه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان وادياً مقدساً[4].

---

(١) القصص: الآية ٢٩.

(٢) النمل: الآية ٧.

(٣) القصص: الآية ٣٠.

(٤) تفسير الطبري ١٦/١٠٩.

﴿وأنا اخترتك﴾ أي: أنا اصطفيتك لنبوتي ورسالتي، وأسمعتك كلامي كما في قوله تعالى: ﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾(١).

فالنبوة لا تكون بالاكتساب وتحصيل الأسباب، لا تكون إلا باصطفاء الحق سبحانه بمشيئته وعلمه وحكمته، فهو سبحانه العليم الحكيم الخبير أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿فاستمع لما يوحى﴾ [١٣] أي: استمع لما يوحى إليك، وتأهب له، واجعل همتك كلها متوجهة إليه، فهو أمر خطير عظيم.

معرفة الله تعالى

ثم ذكر له سبحانه بعض صفات كماله وجلاله، فهو الله المستحق وحده للعبادة والطاعة لتفرده بصفات الكمال والجلال، فقال سبحانه: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ أي: أنا المعبود الحقيقي الذي لا يستحق العبادة والطاعة أحد غيري، ودل قوله سبحانه هذا على أن معرفة الله تعالى هي أوجب الواجبات وأول المهمات وأعظمها، فهي أول ما يجب على الإنسان أن يعلمه، قال تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾(٢) قال ابن كثير رحمه الله: هذا أول واجب، على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له(٣).

عرف سبحانه موسى بأنه الله وحده المستحق للعبادة والطاعة، فلا يستحق العبادة والطاعة غيره جل وعلا، لأنه وحده المتصف بصفات

---

(١) الأعراف: الآية ١٤٤.

(٢) محمد: الآية ١٩.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٤٧١.

الجلال والكمال، وسبق تقرير هذه الحقيقة في أول السورة في قوله تعالى الذي مر معنا ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾.

ولعله قد اتضح لنا الآن سر بدء الآيات بعرض قصة موسى من هذه الواقعة، من موضع النداء، والمناجاة في وادي طوى بجانب جبل الطور، هذه المعرفة هي التي تنير للإنسان درب حياته، وبها تظهر معالم المنهج الذي يجب عليه التزامه، ويبقى الإنسان بدون هذه المعرفة يتخبط في ظلمات الحيرة والقلق والجهل، فهي التي تخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، فيعرف الإنسان بها أن عليه أن يتوجه بطاعته وعبادته إلى الله الذي خلقه ورباه.

عبادته سبحانه

إنها كلمة جميع الأنبياء والمرسلين، فكل واحد منهم قال لقومه: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره»(١) لأنه سبحانه أوحاها إليهم جميعاً: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾(٢).

﴿فاعبدني﴾ أي: توجه إلي وحدي بالعبادة والطاعة، فمن أجل أن تسعد بعبادتي وطاعتي خلقتك، وأنعمت عليك بنعمي، وسخَّرت لك ما في أرضي وسمائي ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾(٣) فالله سبحانه غني عنك وعن عبادتك وطاعتك، ولا سعادة لك أيها الإنسان إلا بطاعة ربك وعبادته، والعيش في ظلال منهجه وشريعته.

فمعنى العبادة: الطاعة والخضوع والانقياد في جميع شؤون الحياة،

---

(١) انظر قصص الأنبياء في سورة الأعراف.
(٢) الأنبياء: الآية ٢٥.
(٣) الذاريات: الآيات ٥٦ ـ ٥٨.

وقد ظهر هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا طراط مستقيم﴾(١)، ووصف سبحانه الذين أطاعوا أحبارهم ورهبانهم الذين غيروا أحكام شريعته فقال: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾(٢).

ذكره سبحانه

والصلاة لله تعالى تدل على طاعته سبحانه والانقياد والخضوع لأمره، فهي العبادة بمعناها الخاص، وهي أهم العبادات لأنها تصل الإنسان بالله تعالى وتذكره به جلَّ جلاله، ولهذا خصها سبحانه فذكرها بقوله:

﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ [١٤] أي: صل الصلاة المشروعة على الوجه الكامل المستقيم من أجل أن تذكرني، فذكره سبحانه يجعل الإنسان في أعلى درجات السعادة الدنيوية، ولا سعادة حقيقية في الدنيا إلا بذكره سبحانه، فهي تصله بالله تعالى، وهي معراجه إليه سبحانه، بها يمتلىء قلب المصلي طمأنينة وسكينة، ويبتعد عن القلق والحيرة والاضطراب وتعب الأعصاب.

تجمع الصلاة للمصلي الانقياد والاستسلام لله تعالى بأسلوب عملي، بأداء قيامها وسجودها وركوعها، مع ذكره سبحانه ومناجاته بالآيات الكريمة التي يقرؤها، وبالتسبيحات الخاشعة التي يرددها، وبالدعوات والابتهالات التي يرفعها.

ويفيض الله تعالى على المصلي في مقابل ذلك من فيوضات رحمته

---

(١) يس: الآيتان ٦٠ - ٦١.
(٢) التوبة: الآية ٣١.

وخزائن فضله وإحسانه، ويذكره سبحانه في الملأ الأعلى، أخبر عن ذلك بقوله: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾(١) وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ، هم خير منهم، وإن تقرَّب مني شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً، تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة»(٢).

أرأيت سعة فضله سبحانه ورحمته، أرأيت كيف أنه سبحانه أسرع إليك بمعونته ورحمته وإحسانه منك إليه بطاعتك وعبادتك، وهو سبحانه غني عنك وعن عبادتك وطاعتك؟!!

وهذا هو سر شعور المصلي الخاشع في صلاته بلذة مناجاته سبحانه، بهذه اللذة تزول عنه هموم الحياة وأحزانها، وبها يعرف حلاوة الإيمان ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾(٣).

ولهذا كان الخشوع في الصلاة روحها وزبدتها، وهو أعلىٰ صفات المؤمنين المفلحين وأرفعها ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾(٤).

فالصلاة خير ما يستعين به الإنسان للتغلب على هموم الحياة ومصاعبها ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾(٥) الصلاة واحة خضراء غناء في صحراء حياة الإنسان، يجد

---

(١) البقرة: الآية ١٥٢.
(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم في كتاب الذكر رقم ٢٦٧٥.
(٣) الرعد: الآية ٢٨.
(٤) المؤمنون: الآيتان ١ ـ ٢.
(٥) البقرة: الآية ١٥٣.

فيها راحة قلبه وغذاء روحه وسكينة نفسه، تنزاح بها عن قلب الإنسان ونفسه أثقال الحياة وهمومها، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر - أي أهمه وأحزنه - صلّى[1].

المسؤولية والجزاء

ثم بيّن سبحانه لموسى عليه السلام بعد أن شرفه بمعرفته، وكلفه بطاعته وذكره، مسؤولية الإنسان عن عمله يوم القيامة، فقال تعالى بأسلوب التقرير المؤكد:

﴿إن الساعة آتية﴾ لا ريب في ذلك ولا شك، فلا معنى لحياة الإنسان ووجوده على الأرض بدون تكليف ومسؤولية، ماذا يبقى من حياة الإنسان إذا انسلخ عن مسؤوليته أمام ربه يوم القيامة؟ فالإيمان بيوم القيامة يعرف الإنسان قيمة حياته، ويجعله يدرك جوهرها، فهو نور كاشف يضيء لنا درب حياتنا، وبدونه تصبح الحياة فارغة تافهة مملة مسئمة، وهو ما يشعر به الناس الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بمسؤوليتهم أمام ربهم خالق الحياة ومدبرها سبحانه.

ومن حكمته جلَّ وعلا ورحمته أنه أخفى عن كل المخلوقات وقت القيامة، لكي يبقى دولاب الحياة مستمراً دون توقف، ولو أنه سبحانه كشف الوقت المقدر ليوم القيامة للناس، لأدى ذلك بالذين يرونه بعيداً إلى تأخير التوبة والتسويف بها، وبالذين يرونه قريباً إلى التوقف عن ممارسة نشاطهم المعيشي الدنيوي، وبهذا يصاب دولاب الحياة بالشلل، وتتوقف مسيرتها على الأرض.

إن وقت الساعة مما استأثر الحق سبحانه بعلمه، فلم يطلع عليه نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً، وقد أخبر سبحانه عن ذلك في عدد من الآيات

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه.

الكريمة، منها قوله الكريم: ﴿يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتةً يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2] وجاء الخبر عن ذلك أيضاً في السنة، فعندما سأل جبريل النبي ﷺ قائلاً: أخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[3].

وقال سبحانه هنا:

﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ أي: أكاد أخفيها حتى عن نفسي فكيف أظهرها لك؟ وهذا محمول كما قال القرطبي: على ما جرت به عادة العرب في كلامها، من أن أحدهم إذا بالغ في كتمان الشيء قال: كدت أخفيه عن نفسي، والله تعالى لا يخفى عليه شيء... ومن هذا الباب قوله ﷺ: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[4].

ثم بين سبحانه الحكمة من تقرير يوم القيامة فقال:

﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ [١٥] أي: بما تعمل في حياتها الدنيا من خير أو شر، فالمسؤولية شخصية، ولا تزر نفس وزر أخرى، ولا يسأل الإنسان إلا عن عمله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾[5].

ويدل قوله سبحانه ﴿بما تسعى﴾ على أن للإنسان كسباً واختياراً في

(١) الأحزاب: الآية ٦٣.
(٢) الأعراف: الآية ١٨٧.
(٣) انظر الحديث كاملاً في الصحيحين.
(٤) تفسير القرطبي ١١/١٨٥.
(٥) النجم: الآيات ٣٩ ـ ٤١.

سعيه وعمله، وأن له إرادة وحرية في ما يعمل وفي ما يترك، وهو أساس مسؤوليته أمام الله تعالى يوم القيامة.

تحذير

وجاء بعد البيان والتقرير التحذير:

﴿فلا يصدنك عنها﴾ أي: لا يمنعنك عن هذه القضايا الثلاث الكبرى، وهي: معرفة الله تعالى بكماله ووحدانيته، وطاعته بإقامة الصلاة والتزام دينه وشريعته، والإيمان بالمسؤولية أمامه سبحانه يوم القيامة ﴿من لا يؤمن بها﴾ أي الذيّ ينكرها ويجحدها، فلا يؤمن بالله تعالى الإيمان الصحيح، ولا يعبده ويذكره وينقاد لشرعه، ولا يؤمن بالمسؤولية والجزاء يوم القيامة. ﴿واتبع هواه﴾ أي: أصبح تابعاً لهوى نفسه.

﴿فتردى﴾ [١٦] أي: فتهلك هلاك الشقاء والتعاسة والعذاب في الدنيا والآخرة.

وهذا التحذير وجهه الله تعالى إلى موسى عليه السلام لأنه المخاطب والمكلم، والمراد به الإنسان المكلف، فكأنه سبحانه يقول لهذا الإنسان: في هذه القضايا الثلاث الأساسية سبيل سعادتك وسلامتك ونجاتك، وفي إعراضك عنها شقاؤك وعناؤك وعذابك في الدنيا والآخرة.

تأنيس وتسكين

لا بدّ أن موسى عليه السلام، وهو في موقف المناجاة في الواد المقدس طوى، قد فوجىء بنداء الحق سبحانه له، ولا بدّ أن وقع المفاجأة أحدث عنده ذهولاً واستغراقاً في الكلمات الأزلية الخالدة التي أسمعه الله تعالى إياها، فنبهه الحكيم العليم الرحمٰن الرحيم من ذهوله واستغراقه بسؤاله سؤال تأنيس وتسكين لنفسه وقلبه:

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ [١٧] وكان عليه السلام راعي غنم،

عوده عمله على حمل العصا، فالعصا آلة عمله ورفيقة دربه وسفره، وانتبه عليه السلام من ذهوله واستغراقه وأجاب:

﴿قال هي عصاي﴾ ثم أردف يبين سبب حمله لها:

﴿أتوكأ عليها﴾ عند القيام وفي أثناء السير.

﴿وأهش بها على غنمي﴾ أي: أضرب بها أغصان الأشجار ليسقط ورقها فيسهل على غنمي تناوله فتأكله، كما قال الراجز:

أهش بالعصا على أغنامي　　من ناعم الأراك والبُشام

﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ [١٨] أي: ولي فيها حوائج أخرى غير ما ذكرت، فكأنه عليه السلام أراد بهذا البيان أن يذكر أنه ما حمل العصا للعدوان وإنما حملها للانتفاع بها.

ومنافع العصا كثيرة، فصلها أعرابي للحجاج بن يوسف الثقفي عندما سأله قائلاً: ما في يدك؟ قال: عصاي أركزها لصلاتي، وأعدها لعداتي وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطوتي، وأثب بها النهر، وتؤمنني من العَثْر، وألقي عليها كسائي فيقيني الحر، ويدفئني من القر، وتدني إلي ما بعد مني، وهي محمل سفرتي، وعلاقة إداوتي، أعصي بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب. . . (١).

المعجزة الأولى

﴿قال ألقها يا موسى﴾ [١٩] واستجاب موسى لأمر الله تعالى ﴿فألقاها﴾ أي العصا ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ [٢٠] وفوجىء موسى عليه السلام بالمعجزة التي ما خطرت له على بال، وما كان يتوقعها، انقلبت العصا بقدرة الله تعالى إلى حية تتحرك.

---

(١) تفسير القرطبي ١١/١٨٨.

والحية: اسم جنس يقع على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، وقد وصفها سبحانه في موضع آخر بقوله: ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾(١) مما يدل على ضخامتها، فالثعبان: العظيم من الحيات.

ويبدو أنها كانت تتحرك حركات سريعة، إذ وصفها سبحانه أيضاً في موضع آخر بقوله: ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾(٢).

واجتمع على موسى هول المفاجأة، والخوف الطبيعي الذي يعتري الإنسان في مثل هذه المواقف، فابتعد هارباً منها.

وطمأنه سبحانه وأزال خوفه كما مرَّ معنا، وقال له أيضاً: ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾(٣) وأمره أن يأخذها ويحملها: ﴿قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ [٢١] أي: سنعيدها إلى هيئتها الأولى فنردها عصا كما كانت، فأخذها موسى، فعادت بقدرة الله تعالى عصا كما كانت.

المعجزة الثانية

ثم أمره سبحانه أن يدخل يده من فتحة جيب قميصه تحت إبطه ثم بعد أن يدخلها يخرجها، فقال:

﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أي: إلى جنبك تحت العضد.

وجناحا الإنسان جنباه، قال سبحانه في موضع آخر: ﴿وأدخل يدك في جيبك﴾ الآية(٤).

---

(١) الشعراء: الآية ٣٢.
(٢) النمل: الآية ١٠.
(٣) القصص: الآية ٣١.
(٤) النمل: الآية ١٢.

﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي: تخرج تتلألأ كأنها القمر من غير أذى فيها ولا عيب بقدرة الله تعالى ومشيئته.

﴿آية أخرى﴾ [٢٢] أي: معجزة ثانية، أجراها الله تعالى على يدك وأيدك بها كدليل يدل على صحة نبوتك وصدق رسالتك.

﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ [٢٣] أي: فعلنا بك ذلك لنجعلك ترى بعض معجزاتنا الكبرى، فهاتان المعجزتان، العصا واليد، اللتان أراهما الله تعالى موسى، هما بعض المعجزات التي أيده سبحانه بها، في أثناء مواجهة موسى لفرعون وملئه، فقد أيده الله تعالى بتسع معجزات أخبره سبحانه عنهن في قوله: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾[١].

وتدل كثرة المعجزات الحسية التي أيد الله تعالى بها موسى، على شدة عناد الذين أرسل إليهم.

الرسالة

ثم كلفه سبحانه وتعالى بحمل رسالته وتبليغها، فأمره هذا الأمر الصريح: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [٢٤] أي: جاوز الحد في تكبره وكفره، وفي فجوره وظلمه، حتى زعم لنفسه صفة الربوبية، فقد حكى الله تعالى عن فرعون قوله: ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾[٢]، وادعى أيضاً صفة الألوهية في قوله الذي ذكره سبحانه في الآية الكريمة: ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ الآية[٣].

وبهذا بلغ غاية الطغيان والتكبر والتجبر، ولا شك أن موسى كان

---

(١) النمل: الآية ١٢.

(٢) النازعات: الآية ٢٤.

(٣) القصص: الآية ٣٨.

يعلم مدى طغيان فرعون وظلمه، لأنه نشأ في قصره، وتربى في كنفه، وابتلي بعد ذلك بقتل رجل من أعوانه وجنوده، فخرج من مصر هارباً من ظلمه وطغيانه، فأقام في مدين سنين، وهو يعمل عند الرجل الصالح شعيب في رعاية الغنم، وتزوج إحدى ابنتيه، ولما ظن أن فرعون قد نسي أمره، أو أن مرور السنين قد يجعله يعفو عنه، عاد إلى مصر، وفوجىء وهو في طريق عودته بتشريف الله له بالنبوة وتكليفه بحمل الرسالة إلى فرعون وملئه وبني إسرائيل.

يا لها من مهمة كبيرة وخطيرة، كيف يواجه موسى عليه السلام فرعون الطاغية؟ ولا بدّ أن موسى عليه السلام شعر بثقل الرسالة التي حُمِّلها، دل على ذلك ما حكاه الحق سبحانه عنه في موضع آخر: ﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون * وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدِّقني إني أخاف أن يكذبون﴾[1].

وقوله أيضاً: ﴿قال رب إني أخاف أن يكذبون * ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هرون * ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾[2].

سؤال المعونة

وفصلت الآيات هنا في سورة طه سؤال موسى المعونة من ربه، لتبين شدة افتقار العبد للرب، فلا بدَّ للعبد من معونة ربه سبحانه في جميع الأحوال، ولا غنى لأحد عن الله تعالى، وهذا نبي الله موسى، وهو من أولي العزم من الرسل، يتوجه إلى الله تعالى يستعين به بخشوع وخضوع ﴿قال رب اشرح لي صدري﴾ [٢٥] سأل الله أولاً أن يوسع له صدره حتى يتمكن من حمل الرسالة وأداء الأمانة، فإن ثقل الرسالة جعله كما مر معنا،

---

(١) القصص: الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الشعراء: الآيات ١٢ ـ ١٤.

يشعر بضيق في صدره، وانشراح الصدر وزوال الضيق يقوي من عزم الإنسان ويحول الشعور بمشقة التكليف إلى متعة ولذة، ويجعله دافعاً للحياة لا عبئاً يثقل خطى الحياة[1].

والجدير بالذكر هنا أن الله تعالى أكرم نبينا محمداً ﷺ بشرح صدره لحمل رسالة الإسلام من غير سؤال، وأنزل عليه سبحانه في معرض الامتنان قوله الكريم ﴿ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك﴾[2].

ثم سأل موسى عليه السلام ربه أن ييسر له أمره فقال:

﴿ويسر لي أمري﴾ [٢٦] أي: سهل علي ما أمرتني به من مواجهة فرعون وتبليغه الرسالة.

﴿واحلل عقدة من لساني﴾ [٢٧] سأل موسى أيضاً ربه أن يزيل النقص الذي كان يظهر في كلامه، ويبدو أنه نتيجة حادث حدث له في صغره ترك أثراً في لسانه.

﴿يفقهوا قولي﴾ [٢٨] أي: ليكون كلامي واضحاً، فيفهموه ويعلموه، ولهذا فإن الله تعالى لا يختار لتبليغ رسالته إلا أكمل الناس خَلْقاً وخُلُقاً.

﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ [٢٩] أي: اجعل لي من أهلي معيناً ومساعداً يوازرني ويساعدني في المهمة التي كلفت بها.

سأل الله الوزير من أهله، ثم عينه فقال: ﴿هرون أخي﴾ [٣٠].

ثم سأل الله تعالى أن يقويه به، فليس كل وزير يكون عوناً وسنداً.

﴿اشدد به أزري﴾ [٣١] أي: قوِّ به ظهري، أو زدني به قوة.

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/٢٣٣٣.

(٢) الشرح: الآيات ١ ـ ٤.

﴿وأشركه في أمري﴾ [٣٢] أمر النبوة وحمل الرسالة.

﴿كي نسبحك كثيراً﴾ [٣٣] أي: كي نكثر من صلاتنا وعبادتنا، أو نزيد في تنزيهك وتقديسك عن صفات النقص.

﴿ونذكرك كثيراً﴾ [٣٤] أي: ونكثر من ذكرك، فيكون ذلك عوناً لنا على ما كلفتنا به، فإن الإكثار من الصلاة والذكر يمد الإنسان بطاقة روحية كبيرة، تعينه على تحمل التبعات الجسيمة والمهمات العظيمة، كما مر معنا.

ولهذا لما اختار الله تعالى مريم للمهمة الكبيرة العظيمة، أمر الملائكة أن تناديها وهي في محراب عبادتها لتضاعف من صلاتها وقنوتها وذكرها ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾[١].

وكذلك عندما كلف الله تعالى نبينا ﷺ بحمل رسالة الإسلام، أنزل عليه في بواكير التنزيل قوله الكريم: ﴿يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾[٢].

وتدل الآيات على أنه ينبغي على الإنسان إذا أحدث الله تعالى له نعمة، أن يحدث لله تعالى شكراً، وذلك بمضاعفة طاعته وعبادته، والإكثار من تسبيحه وذكره جلَّ وعلا.

﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ [٣٥] أي: إنك عالم بأحوالنا، تعلم ضعفنا وافتقارنا.

---

(١) آل عمران: الآيتان ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) المزمل: الآيات ١ ـ ٥.

سوابق الفضل الإلهي

واستجاب الحق سبحانه لدعوات موسى عليه السلام، وحقق له سؤله، وأخبره سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ [٣٦] هكذا مرة واحدة أعطيت كل ما سألت، وبكلمة واحدة، فيها إجمال يغني عن التفصيل، وفيها إنجاز، لا وعد ولا تأجيل(١).

ثم ذكره سبحانه بسوابق فضله وإحسانه عليه، وأن موسى عليه السلام كان في جميع مراحل حياته وتقلباته، موضع عنايته سبحانه، أحاطه بخفي ألطافه، وحفه بكريم إحسانه منذ بداية حياته وبواكير نشأته.

وبهذا عادت الآيات الكريمة عوداً لطيفاً إلى قصة موسى عليه السلام من بدايتها، وظلت الآيات محافظة على أسلوبها اللطيف الرهيف مكتفية بالمرور السريع على الأطوار والمراحل التي تَقَلَّبَ فيها موسى عليه السلام دون استقصاء وتفصيل، اقتصرت فقط على تذكير موسى ببعض منن الفضل الإلهي عليه، والجود الصمداني والإحسان الرباني. قال تعالى:

﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ [٣٧] أي: أنعمنا عليك قبل هذه المرة.

﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى﴾ [٣٨] أي: عندما أوحينا إلى أمك وحي الإلهام، أو بواسطة هاتف هتف بها بإذن الله تعالى، ولعله الأرجح إذ تضمن الوحي أمرين ونهيين وبشارتين، كما في قوله سبحانه: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾(٢) بيّن الله سبحانه لها ما ينبغي أن تفعله لينجو موسى من الأذى، ويسلم من الذبح، بعد أن أصدر فرعون أوامره بذبح كل مولود ذكر يولد في بني إسرائيل.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٣٤.

(٢) القصص: الآية ٧.

﴿أن اقذفيه في التابوت﴾ أي: ضعيه في صندوق من الخشب.

﴿فاقذفيه في اليم﴾ وألق هذا الصندوق في نهر النيل.

وكنت يا موسى وأنت داخل الصندوق، والأمواج تتقاذفك، موضع عنايتنا ورحمتنا وحفظنا، فبأمرنا وإرادتنا حملتك الأمواج إلى ساحل قصر فرعون ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ ويلاحظ أنه جاء الخبر عن هذه الواقعة بصيغة الأمر والخطاب لمياه النهر، مما يدل على أن مشيئته سبحانه تامة نافذة في جميع الموجودات، وها هي مياه النهر تخضع لأمره سبحانه، وتنقاد لمشيئته جلَّ وعلا، فتؤدي الأمانة التي حملتها سليمة معافاة إلى الساحل حيث شاء الله تعالى وقدّر.

الحب من جنود الله تعالى

وأي ساحل، ساحل الأخطار، ساحل قصر فرعون، الذي أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، حملتك مياه النهر بأمر الله تعالى إلى من كانت أمك خائفة عليك من ظلمه وطغيانه، حتى أخذك عدو الله وعدوك الذي كان يبحث عنك.

﴿يأخذه عدو لي وعدو له﴾ وهكذا أصبحت في قبضة فرعون، وتحت أمره وسلطانه، ومع ذلك حماك الحق سبحانه منه، فسلطان الله أقوى من سلطان فرعون، ما فرعون وما جنود فرعون بجانب سلطان الله جلَّ جلاله!!! حماك الله تعالى من فرعون بفرعون، وجعل سبحانه لك في قصره حرزاً وحصناً ووقاية وحماية.

تباركت ربي ما أعظمك وما أرحمك!! حماك الحق سبحانه من ظلم فرعون وجبروته بالحب، وجعل من الحب حارساً لك.

﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ أي محبة عظيمة كائنة مني.

وجاءت كلمة ﴿محبة﴾ نكرة لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية، ثم جعلت من الله تعالى، فأضيفت لها فخامة أخرى(١).

فما رآك أحد إلا أحبك، هكذا حرسك الله بالحب، وأصبح الحب جندياً من جنود الله تعالى ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾(٢) فعندما رأتك سيدة القصر امرأة فرعون، أوقع الله محبتك في قلبها، فأنقذتك من الذبح، بعد أن أمر فرعون بقتلك. دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾(٣). وهي المرأة التي آمنت بعد ذلك برسالة موسى ونفعها الله تعالى به، وقال عنها سبحانه: ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾(٤).

﴿ولتصنع على عيني﴾ [٣٩] أي: ولتربى وتنشأ في قصر فرعون، ترعاك عين الله تعالى وتحرسك، وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب(٥).

تحريم المراضع

وتابعت الآيات الكريمة تذكر موسى عليه السلام ببعض سوابق نعم الله تعالى عليه، وبالوقت نفسه تعرض لنا حلقات قصة حياته عليه السلام:

(١) انظر روح المعاني ٦/٨٩.
(٢) المدّثر: الآية ٣١.
(٣) القصص: الآية ٩.
(٤) التحريم: الآية ١١.
(٥) في ظلال القرآن ٤/٢٣٣٥.

﴿إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله﴾ مشت أخته تقص أثره وتتبع أخباره، حتى وصلت إلى قصر فرعون، فوجدتهم منهمكين به يبحثون له عن مرضع، وكلما أحضروا له مرضعاً رفض ثديها وأبى لبنها، فقد حرّم الله عليه المراضع، وأخبر سبحانه عن ذلك في قوله:

﴿وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾[1] وقبلوا منها عرضها، فدلتهم على أمه التي ضمته إلى صدرها، وألقمته ثديها، تقبله بإذن الله تعالى، عرّفه سبحانه أن هذا الثدي ثدي أمه، ثدي المرأة التي حملته في أحشائها، وغذته بدمائها، ثدي الأم التي كادت من فرط حنانها وشفقتها أن تكشف أمرها وتبوح بسرها، ولكن عناية الله تعالى أدركتها، وثبتت قلبها: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾[2].

﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾ هكذا ردك الله تعالى إلى أمك، فقرت عينها وزال حزنها، وحقق سبحانه لها ما وعدها به عندما أمرها أن تلقيك في النهر داخل الصندوق.

الابتلاء بالقتل

وكذلك أدركتك عناية الله تعالى، وحفت بك ألطافه عندما ابتليت بقتل رجل من رجال فرعون.

﴿وقتلت نفساً﴾ خطأً دون أن تقصد إلى قتله، إنما أردت كفه عن ظلمه، وقد فصل سبحانه حادثة القتل في موضع آخر فقال: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى

---

(١) القصص: الآية ١٢.
(٢) القصص: الآية ١٠.

فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾[1].

وصدرت الأوامر بقتلك، وأرسل الله تعالى لك رجلاً يحذرك وينصحك ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين * فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين﴾[2]. ويسر الله تعالى لك سبيل النجاة ﴿فنجيناك من الغم﴾ الذي أصابك بسبب قتل الرجل.

﴿وفتناك فتوناً﴾ أي: اختبرناك وامتحناك اختباراً بعد اختبار وامتحاناً بعد امتحان، ونجيناك منها جميعاً.

موعد وقدر

﴿فلبثت سنين في أهل مدين﴾ أي: أقمت سنين عند الرجل الصالح شعيب في مدين، ولعلها المذكورة في قوله تعالى على لسان شعيب: ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين * قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل﴾[3].

﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾ [٤٠] أي: ثم جئت إلى موضع النداء والمناجاة على القدر الذي قدرته لك، والموعد الذي تعلقت به مشيئتي، وسبق به علمي، فلم تتقدم عليه ولم تتأخر، إنها خطوات وحركات مقدرة محسوبة قدرها العليم الحكيم.

﴿واصطنعتك لنفسي﴾ [٤١] أي: اخترتك واصطفيتك لمحبتي

(١) القصص: الآيتان ١٥ ـ ١٦.
(٢) القصص: الآيتان ٢٠ ـ ٢١.
(٣) القصص: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.

وكرامتي، وهذا يدل على أن لموسى عليه السلام مكانةً عالية عند الله تعالى.

أو كما قال سيد قطب رحمه الله: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ خالصاً مستخلصاً ممحضاً لي ولرسالتي ودعوتي، ليس بك شيء من هذه الدنيا، ولا لهذه الدنيا، إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها، واصطنعتك لتؤديها فما لك في نفسك شيء، وما لأهلك منك شيء، وما لأحد فيك شيء فامض لما اصطنعتك له[1].

عدة الداعية وأسلوبه في الدعوة

﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي﴾ أي بمعجزاتي التي أيدتك بها.

﴿ولا تنيا في ذكري﴾ [٤٢] أي: لا تفترا ولا تقصرا في ذكري، فهو عدتكما في مهمتكما، اتخذا ذكري جناحاً تطيران به[2].

قال ابن كثير رحمه الله: المراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما، وسلطاناً كاسراً له[3].

وقد أمر الله تعالى بذكره عند لقاء العدو فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[4].

وقد يكون المراد من الذكر تبليغ الرسالة، فإن الذكر يقع على كل العبادات، وتبليغ الرسالة من أعظمها[5] فيكون المعنى: ولا تقصرا في تبليغ رسالتي.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٣٦.
(٢) تفسير النسفي ٤/١٩٨.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٤٨٢.
(٤) الأنفال: الآية ٤٥.
(٥) التفسير الكبير ٢٢/٥٧.

﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ [٤٣] جاوز الحد باستكباره وظلمه وفجوره، ومع ذلك أمرهما سبحانه أن يلينا القول له:

﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ لا خشونة فيه، ولا شدة ولا غلظة.

﴿لعلَّه يتذكر﴾ أي: يتعظ ويقبل الموعظة.

﴿أو يخشى﴾ [٤٤] عقاب الله تعالى وانتقامه.

بهذا التوجيه الكريم بيَّن الله تعالى للدعاة الأسلوب الذي ينبغي عليهم اتباعه في الدعوة إلى الله تعالى، وهو أسلوب الرفق واللين ومحاولة الوصول إلى المراد بأيسر الطرق وأسهلها، كما في قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[١] وفي الحديث النبوي الشريف عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»[٢].

قال ابن كثير: هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين[٣].

ومهما كان المدعو مبالغاً في كفره وظلمه، فلا ينبغي للداعية أن ييأس من هدايته، بل ينبغي أن يدعوه دعاية من يرجو هدايته، فلو يئس من هدايته لا يبلغه الدعوة بحرارة وحماس وإخلاص، ولهذا قال سبحانه لموسى وهارون: ﴿فقولا له قولاً ليناً لعلّه يتذكر أو يخشى﴾ أي وأنتما راجيان أن

---

(١) النحل: الآية ١٢٥.
(٢) صحيح مسلم في الجهاد رقم ١٧٣٢.
(٣) مختصر ابن كثير ٢/٤٨٢.

يتذكر أو يخشى، وحاصل الكلام: باشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوعه، ويحشد أقصى وسعه[1].

تثبيت وتطمين

ودل الخطاب الموجه إلى موسى وهارون أن الله تعالى قد أوحى إلى هارون ونبأه وكلفه بالرسالة كما كلف موسى عليهما السلام، ولما اجتمع موسى مع أخيه هارون توجها إلى الله تعالى معاً بهذا الدعاء:

﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا﴾ أي: نخاف أن يعاجلنا فرعون بالعقوبة والأذى قبل أن نتمكن من تبليغه، قالا ذلك لما يعلمان من شدة ظلمه واستكباره.

﴿أو أن يطغى﴾ [٤٥] أو أن يزداد طغياناً واستكباراً بعد تبليغه الدعوة ﴿قال لا تخافا﴾ مما ذكرتما ﴿إنني معكما﴾ أي: لأنني معكما بالحفظ والنصر ﴿أسمع وأرى﴾ [٤٦] ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل في كل حال ما يليق بها من دفع شر وجلب خير.

وبهذا أزال سبحانه خوفهما وطمأنهما، ورحم الله القائل:

وإذا العناية راقبتك عيونها نم فالحوادث كلهن أمان

مواجهة الطاغية

ثم بيّن تعالى لهما ما يقولان لفرعون عندما يواجهانه:

﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك﴾ الذي رباك بفضله وإحسانه ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي: أطلقهم لكي يذهبوا معنا حيث يشاءون.

﴿ولا تعذبهم﴾ أي: وكف عن ظلمهم وتعذيبهم بما تكلفهم القيام به من أعمال السخرة الشاقة، وبما تفعله من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم

(١) روح المعاني ١٩٥/٦.

﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ بمعجزة تدل على صدقنا وصحة رسالتنا، والمراد بها جنس الآية، كانقلاب العصا حية، واليد البيضاء المنيرة.

﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ [٤٧] أي: السلامة والعافية والسعادة في الدنيا والآخرة لمن اتبع دين الله تعالى وتمسك بطاعته وشريعته. وجيء بحرف الجر (على) للإشعار بأن السلام يكون لهم كمظلة واقية، تحميهم من أسباب الشقاء والتعاسة والعذاب.

ودل مفهوم الآية أنه لا سلام ولا سعادة لمن لا يتبع الهدي، فلا سلام لفرعون إذا أصر على كفره وطغيانه.

ولما أرسل النبي ﷺ رسالته إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيها إلى الإسلام، بدأ الرسالة بخاتمة هذه الآية، ونص الرسالة: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[١] - أي عامة الرعية التي تحكمها - :

ودل قوله تعالى: ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾ على أن مهمة الأنبياء والمرسلين لا تقتصر فقط على الدعوة إلى عبادة الله تعالى وطاعته، وإنما تمتد إلى مقاومة الطغاة والظالمين، وإلى العمل من أجل تخليص الأمم والشعوب من ظلمهم وبغيهم.

﴿إنا قد أوحي إلينا﴾ من ربنا جلَّ وعلا الذي أرسلنا إليك.

﴿أن العذاب على من كذب﴾ رسل الله تعالى ﴿وتولى﴾ [٤٨] عن عبادته وطاعته وهذا التعريض بالعذاب دون التصريح به مباشرة من التلطف واللين الذي أوصاهما الله تعالى به.

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم كتاب الجهاد رقم ١٧٧٣.

حوار الإيمان مع الكفر

ومع أن فرعون كان في غاية العتو والاستكبار والطغيان، إلا أن الله تعالى بقدرته ومشيئته منعه من البطش بموسى وهارون، كما وعدهما سبحانه، بل اتجه إلى التحاور مع موسى عليه السلام:

﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ [٤٩] لم يضف نفسه إلى الرب، مع أنهما صرحا له بذلك عندما قالا له ﴿إنا رسولا ربك﴾ ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾.

وذكر سبحانه في موضع آخر أنهما قالا له أيضاً: ﴿إنا رسول رب العالمين﴾[1]، فهو سبحانه ربنا وربك ورب جميع المخلوقات، ولا شك أن إعراض فرعون عن إضافة نفسه إلى الرب سبحانه يدل على شدة طغيانه واستكباره، وهو تجاهل وتغافل عن حقيقة مستقرة في أعماق نفسه، تقول له: إنك مخلوق ومملوك لخالق عظيم، ومربوب لرب كريم، وقد واجهه موسى بهذه الحقيقة في إحدى محاوراته له فقال: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا﴾[2].

ورد موسى على سؤال فرعون بتذكيره بالحقيقة التي تغافل عنها في سؤاله:

﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه﴾ أي ربنا لا ينبغي لأحد أن يسأل عنه، لأنه أوجد كل المخلوقات وأخرجها من العدم، وخص كل مخلوق بصفات وخصائص تناسبه وتلائمه وتميزه من غيره من المخلوقات، فكل المخلوقات تعرف ربها الذي أوجدها وأمدها بأسباب استمرار وجودها

---

(١) الشعراء: الآية ١٦.

(٢) الإسراء: الآية ١٠٢.

﴿ثم هدى﴾ [٥٠] أي: هداهم، فأرشدهم إلى كيفية الانتفاع بما أعطاهم جلّ وعلا، فهو الذي هدى النملة إلى تخزين طعامها، والنحلة إلى السبل التي تسلكها لجمع غذائها والسمكة في أعماق البحار إلى أماكن تكاثرها وتناسلها، والطير في جو السماء إلى طرق هجرته الممتدة فوق المحيطات والقارات. . . إلخ

فهو الذي أعطى كل صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والألفة والاجتماع، وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسبحانه جلَّ وعلا، ما أعظم شأنه وأكمل قدرته!![1].

فإيجاد المخلوقات دليل على وجوده سبحانه، وتخصيص كل مخلوق بالخصائص التي تناسبه دليل أيضاً على وجوده سبحانه وكمال قدرته وعلمه وحكمته، وهداية كل مخلوق إلى طرائق حياته ومعاشه وتكاثره دليل أيضاً على وجوده تعالى وكمال قدرته وتمام مشيئته وحكمته، ورحم الله سيد قطب عندما قال: ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده فيها وفطره عليها، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها، وثم هنا ليست للتراخي الزمني، فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها[2].

وأقول: الأولى أن نقول (ثم) للتراخي الزمني، تدل على توالي عطايا الحق سبحانه وإمداده لمخلوقاته، فمنه الإيجاد والإمداد، والإمداد مستمر من الله تعالى لمخلوقاته إلى الأجل المسمى لها لموتها وفنائها.

وما يسمى الاهتداء الطبيعي الفطري، لا يحدث إلا بإيجاد الحق

(١) أضواء البيان ٤/٤١٩.

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٣٣٨.

سبحانه عندما تتعلق إرادته سبحانه بإيجاده، فهو حادث متجدد بإرادته سبحانه وقدرته، وقد مرّ معنا أن من أسمائه الحسنى القيوم، ومن معانيه أن المخلوقات كلها تقوم به جلَّ وعلا، فإذا قطع سبحانه عنها إمداده انقطع وجودها وانتهت، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ (١).

جواب مفحم

وجاء جواب موسى عليه السلام في غاية البلاغة لاختصاره وعمق معانيه وشموله لجميع المخلوقات، مع الإشارة إلى كثرتها وكثرة أجناسها وأنواعها وخصائصها، وافتقارها إلى خالقها وبارئها جلَّ وعلا، الذي أوجدها من العدم وأمدها بأسباب استمرار وجودها، وهداها وأرشدها، فهو رب العالمين، الواحد الأحد، الإله المستحق للعبادة والطاعة، لا إله غيره ولا رب سواه جلَّ وعلا، فهو جواب ملزم ومقنع ومفحم.

ولا بدّ أن فرعون قد بهت بجواب موسى وأفحم، فاضطر أن يصرف الكلام إلى جهة أخرى:

﴿قال فما بال القرون الأولى﴾ [٥١] أي: فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة؟.

﴿قال علمها عند ربي﴾ لأنه من الغيب المغيب عني، فأنا عبد الله تعالى لا أعلم إلا ما علمنيه ربي جلَّ وعلا.

﴿في كتاب﴾ أي: علم أحوال هذه القرون مثبت في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله تعالى فيه شؤون جميع المخلوقات ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ [٥٢] أي: لا يغيب شيء عن علمه سبحانه ولا

---

(١) فاطر: الآية ٤١.

ينسى شيئاً جلَّ وعلا، وكأن موسى عليه السلام قال ذلك ليبين كمال علمه سبحانه وأنه لا يحتاج إلى كتاب، ولكنه أظهر مقدوراته التي قدرها في اللوح المحفوظ ليطلع عليها من شاء من الملائكة الموكلين بتصريف شؤون المخلوقات.

من دلائل وجوده سبحانه وجوده

وتوقفت الآيات عن متابعة الحوار بين موسى وفرعون لكي تبين لفرعون وأمثاله من الجاحدين المعاندين بعض البراهين الدالة على وجوده سبحانه وجوده، وبعض آثار رحمته وإحسانه، قال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ أي: فراشاً ملائماً لحياتكم ومعاشكم، فالأرض للإنسان كالمهد للطفل، وما البشر عليها إلا أطفال، يضمهم حضنها، ويغذوهم درها.

الله سبحانه بقدرته وحكمته أعطى الأرض خلقها لتكون صالحة لحياة الناس عليها، وأعطى الناس خلقهم أيضاً على الهيئة التي خلقوا عليها ليتمكنوا من الحياة على هذه الأرض، وهذا يدل على أن خالق الأرض والإنسان واحد أحد سبحانه.

﴿وسلك لكم فيها سبلا﴾ أي: وشق لكم في الأرض طرقاً تمشون عليها وتنتقلون بواسطتها في نواحي الأرض وأطرافها، قال تعالى في موضع آخر: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خَلَقَهُنَّ العزيز العليم * الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلَّكم تهتدون﴾(١).

﴿وأنزل من السماء ماء﴾ وهو ماء المطر المنزل من السحاب في جهة السماء.

﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ [٥٣] أي: فأخرج الله تعالى

---

(١) الزخرف: الآيتان ٩ ـ ١٠.

بماء المطر أصنافاً من نباتات كثيرة مختلفة في أشكالها وألوانها وطعمها وروائحها، فالخالق هو الله تعالى وحده، ولهذا انتقلت صيغة الكلام من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم، ونظير هذا الانتقال في القرآن كثير، كما في قوله سبحانه: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً﴾ الآية[1] وفي قوله أيضاً: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾ الآية[2] وقوله أيضاً: ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءِله مع الله بل هم قومٌ يعدلون﴾[3].

ويدل هذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم على تعظيم شأن إنبات النبات، فهو ظاهرة كبيرة تدل على عظمة الخالق سبحانه، كما تدل على سعة فضله وإحسانه على الناس، فلو أنه سبحانه ما أنزل المطر وما أخرج الثمر لهلك الناس جوعاً وعطشاً.

الزوجية في المخلوقات

ودل قوله تعالى ﴿أزواجاً من نبات شتى﴾ على حقيقة علمية، ما عرفها الناس إلا في العصور الحديثة، وهي الزوجية في النباتات، وانقسامها إلى زوج مذكر وزوج مؤنث، فقوله ﴿أزواجاً﴾ أي: أصنافاً، سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض[4].

جاء الخبر عن هذه الحقيقة في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله الكريم: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت

---

(١) الأنعام: الآية ٩٩.
(٢) فاطر: الآية ٢٧.
(٣) النمل: الآية ٦٠.
(٤) تفسير البيضاوي ٤/٢٠٢.

من كل زوج بهيج﴾[1] وقوله الكريم أيضاً: ﴿وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾[2] وذكرت بعض الآيات أن الزوجية موجودة في جميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾[3] وقال أيضاً: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلَّكم تذكرون﴾[4].

فالذكورة والأنوثة والسالب والموجب وانقسام المخلوقات إلى صنفين متكاملين، يكمل كل صنف الصنف الآخر الذي يقابله، ظاهرة مبثوثة في جميع المخلوقات، تدل على حدوثها ونقصها وافتقارها، أما الخالق فهو واحد أحد، فرد صمد، قوي قاهر، حي قيوم، غني عن كل شيء، وكل الأشياء تقوم به وتفتقر إليه جلَّ وعلا.

وبعد أن بين سبحانه للناس بعض دلائل وجوده وفضله وإحسانه، وجه الخطاب لهم بأسلوب المتفضل المحسن، فقال:

﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ فقد خلق سبحانه طعامكم وطعام أنعامكم، والأمر للإباحة، ولا يخفى ما فيه من الامتنان والاستدلال على استحقاق المنعم وحده العبادة والطاعة، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكر في الآية ﴿لآيات لأُولي النهى﴾ [٥٤] أي: لبراهين ودلائل ينتفع بها أصحاب العقول الناهية عن اتباع الباطل وعبادة غير خالقها ورازقها جلَّ وعلا، فالتفكر والنظر سبيل الإيمان بالله تعالى ووحدانيته.

---

(١) الحج: الآية ٥.
(٢) لقمان: الآية ١٠.
(٣) يس: الآية ٣٦.
(٤) الذاريات: الآية ٤٩.

الإنسان والأرض

الإنسان مرتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً محكماً، قدر هذا الرباط وأحكمه الخلاق العظيم سبحانه، فبنية الإنسان المادية مكونة من تراب الأرض ﴿منها خلقناكم﴾ كما قال تعالى في آيات كثيرة ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾[1] ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾ الآية[2].

﴿وفيها نعيدكم﴾ ومصير أجسادكم بعد الموت إلى الأرض.

﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [٥٥] في يوم القيامة يوم البعث والنشور، كما في قوله تعالى: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾[3]، إنه ناموس علوي قدّره العليم الحكيم القادر القاهر للإنسان، ومهما أوتي الإنسان من وسائل القوة والتمكين فلن يستطيع التفلت من هذا الناموس القدري، ولن يجد الباحثون بين النجوم كوكباً يلائم الإنسان مثل الأرض، إن جهودهم ضائعة، يبددون فيها طاقات كبيرة لو وجهت إلى عمارة الأرض لكان ذلك أنفع للناس، ولوجد المحرومون ما يسد حرمانهم، والجائعون ما يسد جوعهم.

عناد وجحود

وتابعت الآيات بعد هذا التوقف القصير في محطة الدلائل والبراهين استعراض أحداث قصة موسى مع فرعون:

﴿ولقد أريناه﴾ أي: فرعون ﴿آياتنا كلها﴾ أي: كل المعجزات الدالة على صدق رسالة موسى وصحة نبوته ﴿فكذب﴾ بالآيات ورد البينات ﴿وأبى﴾ [٥٦] الانقياد والإذعان لرب الأرض والسماوات.

---

(١) المؤمنون: الآية ١٢.

(٢) الحج: الآية ٥.

(٣) الأعراف: الآية ٢٥.

بيّن الله تعالى لفرعون سبيل الهداية وطريق السعادة، فأعرض عنه استكباراً وعناداً، واتبع هوى نفسه، فخاب وخسر، وشقي شقاء الأبد، وبهذا أظهر الحق لنا أن مصدر شقاء الإنسان نابع من نفسه، من كسبه واختياره.

كذب فرعون بالآيات البيّنات، وهو يعلم أنها حق وصدق، وقد كشف سبحانه هذه الحقيقة في قوله الكريم: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحرٌ مبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾(1).

ورد فرعون على موسى متهماً له بأنه يطمع في الحكم والسلطان، وأنه أتى ينازع فرعون في سلطانه على أرضه وشعبه، وأن المعجزات التي أيده الله تعالى بها ليست سوى عمل من أعمال السحرة:

﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾ [٥٧] وهو سؤال استنكار، ومعناه: ما جئتنا نبياً هادياً، إنما جئتنا تريد لنفسك الحكم والسلطان، فتخرجنا بسحرك من ديارنا وتغلبنا عليها.

وهي نفس الحجة التي يحتج بها كل الطغاة والظالمين في جميع العصور يتهمون كل داعية ومصلح ومعارض لطغيانهم وظلمهم، بأنه يريد لنفسه الحكم والسلطان، وأنه لا يريد إصلاحاً ولا عدلاً، فدعوة موسى في نظر فرعون دعوة سياسية، بحسب الاصطلاح الدارج في العصر الحاضر، وقد يكون بين الدعاة والمصلحين من يتطلع إلى الدنيا ورتبها ومراتبها وزخرفها وزهرتها، ويكثر هذا في عصور الفتن، كما أخبر ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال(2) فتناً كَقِطَعِ الليل

---

(1) النمل: الآيتان ١٣ ـ ١٤.

(2) أي سارعوا إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والانشغال عنها بالفتن الحادثة.

المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا قليل»[1].

لكن الأنبياء عليهم السلام لا يكون منهم شيء من هذا أبداً، فدعوتهم منزهة عن جميع الأغراض الدنيوية خالصة لله تعالى، فهم معصومون بعصمة الله تعالى لهم، وهو سبحانه الذي اصطفاهم واختارهم وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد مرّ معنا قوله تعالى في موسى عليه السلام:

﴿وأنا اخترتك﴾ ﴿ولتصنع على عيني﴾ ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ وسيأتي معنا في آخر السورة قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾.

وأراد فرعون أن يقوي تهمته لموسى ويعززها، فقال له على سبيل التحدي: ﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾ معارضاً لسحرك ومماثلاً له ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت﴾ وحتى لا نتخلف عنه اجعله في مكان معلوم ﴿مكاناً سُوًى﴾ [٥٨] يستوي الجميع في معرفته. ولم يقبل فرعون على تحدي موسى مباشرة، بل رجع أولاً إلى أعوانه ومستشاريه كما دلت على ذلك الآيات في غير هذا الموضع: ﴿قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم﴾[2].

الاستعداد ورسم الخطط

﴿قال﴾ أي: موسى ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ وهو يوم عيد لهم كما تدل عليه الصفة التي وصف بها ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ [٥٩] أي: وأن

---

(١) صحيح مسلم في كتاب الإيمان رقم ١٨٦.
(٢) الشعراء: الآيات ٣٤ - ٣٧.

يجمع الناس في وقت الضحى من النهار ﴿وتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾ [٦٠] أي: جمع أسباب مكره واحتياله، وأخذ يشجع السحرة، يعدهم بالوعود البراقة، ويمنيهم الأماني الخلابة، قال تعالى: ﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين﴾[1].

ووقف موسى عليه السلام في وسط الميدان حاملاً عصاه في مواجهة عدد كبير من السحرة الحاملين حبالهم وعصيهم ووسائل سحرهم.

ووجه موسى عليه السلام قبل بدء المبارزة الدعوة إلى السحرة، وبلغهم الرسالة التي كلفه الله تعالى بتبليغها، ثم حذرهم من عذاب الله وغضبه إذا أصروا على الوقوف بجانب الطاغية ومساعدته على طغيانه وظلمه: ﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً﴾ بأن تصفوا معجزات الله تعالى بصفة السحر ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ أي فيهلككم الله تعالى بعذاب يستأصلكم به ﴿وقد خاب من افترى﴾ [٦١] أي: خسر من كذب على الله تعالى. ويبدو أن كلمات موسى قد أثرت فيهم، وأحدثت بينهم تنازعاً واختلافاً ﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾ [٦٢] فتنازعوا واختلفوا، واضطروا إلى الحديث الخفي فيما بينهم ليستروا تنازعهم واختلافهم، وتوصلوا أخيراً إلى الاتفاق، وخلاصة ما اتفقوا عليه:

﴿قالوا﴾ بعضهم لبعض ﴿إن هذان لساحران﴾ يشيرون إلى موسى وهارون ﴿يريدان أن يخرجاكم من أرضكم﴾ أرض مصر.

﴿بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ [٦٣] أي: ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر، دونكم، ويسيطران على مكاسبها المادية ومراتبها.

---

(١) الشعراء: الآيات ٣٨ ـ ٤٢.

وهذا يدل على أن السحرة نظروا إلى موسى وهارون على أنهما منافسان خطيران لهم على صناعة السحر وأرباحها وفوائدها، كما يدل على أنه كان للسحرة في المجتمع المصري في ذلك الوقت انتشار كبير ومكانة عالية، وقد جعلهم الخوف على الأرباح والمناصب يوحدون كلمتهم وصفهم، ولا بدّ أن فرعون قد دس بينهم بعض أتباعه ليجعلوا السحرة ينظرون إلى موسى وهارون هذه النظرة، فتحقق لهم ما أراد فرعون، واتفقت كلمة السحرة، ووحدوا موقفهم، وأوصى بعضهم بعضاً قائلين:

﴿فأجمعوا كيدكم﴾ أي: وحدوا عملكم الذي تكيدون به موسى وهارون ﴿ثم ائتوا صفاً﴾ أي: تقدموا إلى ميدان المبارزة متعاونين متساندين ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ [٦٤] أي: من فاز وغلب.

وهكذا أعادوا تنظيم صفهم، وتوحيد كلمتهم، ورسم خططهم.

الجولة الأولى

وبث اجتماعهم واتفاقهم الثقة في نفوسهم، فأقبلوا على موسى مخيرين: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى﴾ [٦٥] فاختار عليه السلام الجولة الثانية ليرى ما يستطيعون أن يفعلوا من السحر ويظهر للناس حقيقة أمرهم:

﴿قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ [٦٦] ألقوا حبالهم وعصيهم وهم يرفعون أصواتهم يشيدون بفرعون تزلفاً وتقرباً، كما ذكر سبحانه في موضع آخر فقال: ﴿فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾[١].

(١) الشعراء: الآية ٤٤.

وامتلأت ساحة الميدان الفسيحة بالحبال والعصي، وتمكن السحرة من جعل الناس يتخيلون أنها تتحرك، فالسحر الذي صنعوه أثر في أعين الناس، فأصبحوا يتخيلون أن الحبال والعصي تتحرك وتسعى، قال تعالى في موضع آخر: ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾[1] كان لهذا السحر وقع كبير على أعين الناس، وتأثرت الجموع البشرية المحتشدة حول الميدان الكبير بما شاهدت، كما تأثرت بأصوات السحرة المرتفعة التي تصدر عنهم، فهاجت واضطربت، حتى ساور موسى شيء من الخوف والقلق على ضياع الحقيقة بين ركام هذا الباطل، ولكن الله سبحانه ثبته وبشره بالنصر والظفر.

الجولة الثانية

فالحقيقة لن تضيع في ركام هذا الباطل، بل ستأتي عليه وتلغيه من الوجود لأنها من الله تعالى وبالله سبحانه ولله جلَّ جلاله:

﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ [٦٧] ﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ [٦٨] هكذا بصيغة التقرير المؤكد، بكلام مستأنف مُصَدَّر بحرف التحقيق، مع تكرير الضمير ﴿أنت﴾ وإظهار الخبر بصيغة أفعل التفضيل ﴿الأعلى﴾ وأمره سبحانه بعد هذا التثبيت مباشرة أن يلقي عصاه:

﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا﴾ تبتلع كل ما صنعوا بقدرة الله تعالى ومشيئته، فتلغي وجوده وتعدمه، فلم يبق في الميدان غير المعجزة ﴿إنما صنعوا كيد ساحر﴾ أي: حيلة ساحر، ومكر ساحر، والمراد به جنس الساحر، وهل يثبت كيد ساحر أم معجزة الحق جلَّ وعلا؟!!

﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ [٦٩] أي: لا فلاح للساحر ولا نجاح له في أي مكان كان.

---

(١) الأعراف: الآية ١١٦.

ألقى موسى عصاه، فتحولت مباشرة إلى ثعبان مبين بقدرة الله تعالى. وابتلع الثعبان كل الحبال والعصي التي كانت تملأ الميدان، تم كل ذلك بسرعة فائقة مذهلة، دل على هذه السرعة اختصار النص للأحداث المتتالية، وجاء بفعل ﴿تلقف﴾ مجزوماً لوقوعه بجواب الأمر ﴿ألق﴾ فدل على الاستجابة السريعة للأمر الإلهي، فإرادته تعالى نافذة تامة في كل الموجودات.

السجود لله تعالى

وذهلت الجماهير وهدأت، وخيم على الميدان صمت رهيب وذعر شديد للحظات قليلة، إذ تعلقت أبصار الناس بالسحرة، وهم يخرون ساجدين على أرض الميدان لله تعالى، بينما انطلقت أصواتهم تعلن إيمانهم برب العالمين، رب هارون وموسى، وجاء التعبير عما حدث بقوله تعالى: ﴿فألقي السحرة سجداً﴾ كأن قوة خفية ألقتهم، لم يتمالكوا أنفسهم أمام قوة الحق، ووضوح البرهان، فانقادوا له مستسلمين خاضعين، وأعلنوا انقيادهم وخضوعهم وإسلامهم بشكل جماعي تلقائي، دون أن يستشير بعضهم بعضاً، ويراجع بعضهم بعضاً:

﴿قالوا آمنا برب هرون وموسى﴾ [٧٠].

وشعر فرعون بمرارة الهزيمة أمام الجموع المحتشدة من الناس، الهزيمة التي هزت عرش طغيانه وجبروته، فلجأ إلى الأسلوب الذي يلجأ إليه أمثاله من الفراعنة المستبدين في كل زمان، أسلوب القمع والبطش لإرهاب الجماهير، وجعل السحرة أول ضحايا قمعه وبطشه وإرهابه، وحتى يستر جرائمه وظلمه اتهمهم بالتواطؤ مع موسى، وأنهم متآمرون معه.

القمع والإرهاب

﴿قال آمنتم له﴾ قال فرعون آمنتم لموسى وصدقتم دعوته.

﴿قبل أن آذن لكم﴾ أي: قبل أن أسمح لكم بذلك، كأن سلطان

القلوب بيده وتحت أمره ومشيئته، مع أن أصحاب القلوب لا سلطان لهم على قلوبهم؛ القلوب بيد خالقها سبحانه القائل: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾[1].

﴿إنه﴾ أي: موسى ﴿لكبيركم الذي علّمكم السحر﴾ أي: هو معلمكم الكبير الذي تعلمتم السحر منه، وتآمرتم معه عليَّ وعلى رعيتي، كما في قوله تعالى: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾[2].

﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي: أقسم أن أقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف، اليد من جانب، والرجل من الجانب الآخر.

﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي: لأثبتن أجسادكم على جذوع النخل بواسطة مسامير تغرس في أجسادكم، أراد اللعين بهذا التعذيب العلني للسحرة المؤمنين أن يخوف جماهير الناس ويردعهم حتى لا يؤمنوا بالله تعالى ويصدقوا دعوة موسى عليه السلام.

﴿ولتعلمن أيُّنا أشد عذاباً وأبقى﴾ [٧١] يعني أنا أم رب موسى أشد عذاباً وأكثر دواماً.

الإيمان يتحدى الطغيان

ولم يأبه السحرة الذي ملأ الإيمان قلوبهم لتهديد فرعون ووعيده، وردوا عليه: ﴿قالوا لن نؤثرك﴾ أي: لن نختارك ونسير وراءك.

﴿على ما جاءنا من البينات﴾ ونترك البراهين الواضحة التي بينت لنا

---

(١) الأنفال: الآية ٢٤.

(٢) الأعراف: الآية ١٢٣، انظر أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف.

طريق الحق والهدى، وهذا يدل على أن إيمانهم لم يكن نزوة عاطفية آنية، كردة فعل عكسي لمشاهدتهم معجزة العصا، ولكنه إيمان راسخ قائم على البراهين القطعية، فكأن المعجزة أيقظتهم من غفلتهم، وجعلتهم يستعملون عقولهم وينظرون فيها نظر المتفكر الباحث عن الحقيقة، فوجدوها وعرفوها من خلال النظر والتفكير الموضوعي الصحيح.

ثم أكدوا تمسكهم بإيمانهم وثباتهم عليه، فأقسموا بالله تعالى الذي فطرهم ﴿والذي فطرنا﴾ أي: خلقنا وأخرجنا من العدم، ثم قالوا لفرعون متحدين له ﴿فاقضِ ما أنت قاضٍ﴾ أي: افعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، ﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ [٧٢] فسلطانك محدود في حدود هذه الحياة الدنيا الزائلة الفانية الحقيرة.

هكذا تحدى إيمان السحرة طغيان فرعون، بعد أن كانوا قبل الإيمان خاضعين له، يستجدون ما عنده من حطام الدنيا، ويطلبون منه شيئاً من فتاتها كما مرّ معنا: ﴿قالوا أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾.

ثم كرروا تحديهم لطغيانه وجبروته، فصرخوا في وجهه قائلين:

﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ وهذا يدل على أن فرعون قد أكرههم على تعلم السحر ليستعين بسحرهم عند الحاجة في تضليل الجماهير، وجعلهم يصدقون ادعاءه صفة الألوهية والربوبية.

﴿والله خير وأبقى﴾ [٧٣] وهو رد على قوله: ﴿ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾.

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، وعلى الطمع في المثوبة،

والخوف من السلطان، وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان[1].

وفجر الإيمان بالله تعالى ينابيع الحكمة في قلوبهم، فنطقت بها ألسنتهم دعاة واعظين: ﴿إنه من يأت ربه مجرماً﴾ بأن يموت مصراً على كفره وفجوره.

﴿فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ [٧٤] الحياة السعيدة، بل يشقى فيها أبداً.

﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ في الدنيا.

﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ [٧٥] أي: المنازل العالية في الجنة.

﴿جنّات عدن﴾ حيث الإقامة الدائمة ﴿تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾ [٧٦] أي: طهر نفسه من أدناس الكفر والفجور.

عاقبة الطغيان

ثم بينت الآيات عاقبة طغيان فرعون وظلمه بإيجاز:

﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ أي سر بهم ليلاً لتنقذهم من ظلم فرعون وطغيانه.

﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً﴾ أي: جافاً لا ماء فيه ولا بلل.

﴿لا تخاف دركاً﴾ أي: أن يدركك فرعون الذي خرج وراءهم بجنوده.

﴿ولا تخشى﴾ [٧٧] من الغرق في البحر.

﴿فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ [٧٨] أي: فغمرهم من مياه البحر ما غمرهم، ونزل بهم من الغرق والعذاب ما لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى.

وقد فصّل سبحانه ما حدث في موضع آخر فقال: ﴿وأوحينا إلى

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٣٢٤.

موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون * فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنّاتٍ وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين﴾[١].

هكذا كانت عاقبة طغيان فرعون وظلمه وفجوره مع جنوده الذين كانوا أعوانه على الظلم والطغيان: ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ [٧٩] لأنه قادهم في طريق الشقاء والتعاسة وما دلهم على طريق السعادة والهداية، وهو رد على فرعون وتهكم به عندما كان يقول لقومه: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾[٢].

وتلك هي العاقبة الأليمة التعيسة لكل الذين يسيرون في ركاب الظالمين من أمثال فرعون، ويعرضون عن عبادة الله تعالى وطاعته والتزام أحكام شريعته.

تحذير وترغيب

ختمت الآيات الكريمة قصة موسى مع فرعون بهذا التحذير الموجه من قبل الحق سبحانه إلى بني إسرائيل بعد نجاتهم من ظلم فرعون وطغيانه:

﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ أي: وعدهم سبحانه أن ينزل على موسى التوراة في مكان المناجاة بالجانب الأيمن من جبل الطور، وهو المكان الذي كلم الله تعالى فيه موسى كما مرّ معنا في أول القصة.

---

(١) الشعراء: الآيات ٥٢ ـ ٦٦.

(٢) غافر: الآية ٢٩.

﴿ونزَّلنا عليكم المن والسلوى﴾ [٨٠] وأنعم الله تعالى عليهم بعد خروجهم من مصر وهم في صحراء سيناء فأنزل عليهم المن، وهو طعام يشبه الكمأة، والسلوى: وهو طائر معروف.

ثم أمرهم أمر إباحة على سبيل الامتنان وبيان الفضل والإحسان:

﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم حذرهم من الطغيان ومجاوزة الحد المشروع لهم فقد أعطاهم سبحانه كل أسباب الراحة والسعادة، رزق ميسر وشريعة التوراة تنظم حياتهم وتبين كيف يعبدون ربهم ويطيعونه.

﴿ولا تطغوا فيه﴾ بتجاوز حدود ما شرع الله تعالى لكم وعبادة غيره سبحانه واستعمال نعمه بالمعاصي والفجور، فإنكم إن حصل منكم طغيان حرمتم أنفسكم من أسباب السعادة، وعرضتموها للشقاء والحرمان والتعاسة ﴿فيحل عليكم غضبي﴾ أي: فيغضب سبحانه عليكم وينزل بكم عذابه وانتقامه ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ [٨١] أي: سقط وتردى في هاوية الشقاء والتعاسة.

فسعادة الإنسان من الله تعالى وبالله جلَّ وعلا، بعبادته وطاعته وذكره، وشقاء الإنسان من إعراضه عن الله تعالى وعن عبادته والتزام شريعته.

وقد عودنا سبحانه في كتابه الكريم أن يقرن الترغيب بالترهيب، وهو أسلوب تربوي رفيع، فلا ييأس أحد من فضله ورحمته، ولهذا قال جلَّ وعلا بعد التحذير والوعيد: ﴿وإني لغفار لمن تاب﴾ فترك الكفر والفجور.

﴿وآمن﴾ بالله الواحد الأحد وصدق رسله وانقاد لشرعه.

﴿وعمل صالحاً﴾ فأدى التكاليف التي كلفه ربه بها.

﴿ثم اهتدى﴾ [٨٢] أي: استمر ثابتاً على طريق الحق مستقيماً عليه حتى الموت.

الفَصل الثاني

قِصّة مُوسَىٰ مَعَ ٱلسَّامِرِيّ صَاحِب العِجْل ٱلذَّهَبِيّ

بهذا ختمت الآيات قصة موسى عليه السلام مع فرعون وطغيانه وظلمه، ومهدت بنداء بني إسرائيل وتحذيرهم إلى القصة الثانية في السورة، قصة موسى مع السامري وطغيانه، إلا أن طغيان السامري يختلف عن طغيان فرعون، كما سنرى من خلال الآيات الكريمة الآتية.

ضرب الله تعالى لموسى عليه السلام موعداً، يأتي فيه إلى موضع المناجاة بجانب الطور لينزل عليه التوراة، وطلب منه سبحانه أن يعتزل قومه ثلاثين يوماً ثم زادها عشرة يقضيها موسى في عبادة الله تعالى وذكره، ثم يأتي بعدها المكان الموعود ويبدو أن الشوق إلى مناجاة الحق سبحانه جعل موسى يسرع إلى مكان المناجاة قبل قومه، فسأله سبحانه وهو أعلم:

﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ [٨٣] ﴿قال هم أولاء على أثري﴾ أي: قريبين مني ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ [٨٤] أي: لتزداد عني رضاً، فما عرف لذة مناجاة الحق سبحانه إلا من ذاقها وسعد بها، ومن تذوقها لا بدّ أن يشتاق إليها، ويطلب المزيد منها.

وبعد أن أكرمه سبحانه وأنزل عليه التوراة مكتوبة في الألواح، أخبره سبحانه بما أحدث قومه في أثناء غيابه عنهم.

﴿قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك﴾ أي: امتحناهم واختبرناهم.

﴿وأضلهم السامري﴾ [٨٥] وتمكن السامري من إضلالهم، فعبدوا العجل الذهبي.

قبضة السامري

والسامري رجل من عباد بني إسرائيل، كانت نفسه تتطلع للزعامة في بني إسرائيل، ورأى الفرصة سانحة له في غياب موسى عليه السلام. فقام في بني إسرائيل واعظاً داعياً لهم للتوبة والتخلص من الأوزار التي يحملونها.

وكان بنو إسرائيل يحملون قطعاً من الحلي الذهبية التي كان فرعون وجنوده يتزينون بها، التقطها الإسرائيليون بعد أن أغرق الله فرعون وجنوده.

ومن المعلوم أن المصريين القدماء كانوا حريصين على التحلي بالذهب، ودل على ذلك ما حكاه سبحانه من كلام فرعون: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾(١).

وكتم القوم عن موسى عليه السلام أمر هذه الغنائم التي غنموها من المصريين فقد كانوا يعلمون أنها لا تحل لهم، فلما أحل الله الغنائم إلا في الشريعة الإسلامية للمسلمين كما جاء في الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أُعطيت خمساً لم يُعطهنّ أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة»(٢).

---

(١) الزخرف: الآيتان ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري من كتاب التيمم رقم ٣٣٥.

وقام السامري، كما سبق، واعظاً في بني إسرائيل، لكي يتخلصوا من هذه الحلي، ولما سألوه: كيف يتخلصون منها، أمرهم أن يلقوها في نار أوقدها لهم، وألقوا الحلي فيها.

ويبدو أن السامري كان خبيراً بصياغة الذهب، فأخذ الذهب الذائب في النار، وصنع منه تمثال عجل، ثم أخذ قبضة من تراب كان يحتفظ بها، قبضها من أثر ملك رآه وهو متشكل بهيئة البشر عند انفلاق البحر، فقد انتبه السامري إلى أن الأرض التي يطؤها تخضرُّ بقدرة الله تعالى، كأن حياة سرت فيها، فأخذ قبضة من تراب هذه الأرض واحتفظ بها، لأمر دبره في نفسه، ولما أكمل صياغة العجل الذهبي ألقى قبضة التراب فيه.

اعتذار كاذب

رجع موسى من مكان المناجاة حاملاً ألواح التوراة، وقد غلب حزنه وغضبه مما أحدثه قومه على فرحه بالتوراة، قال تعالى:

﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ ولما وصل إليهم بادر إلى لومهم وتعنيفهم ﴿قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾ بأن يكرمكم بالتوراة التي جعل الله فيها أسباب الهداية والسعادة لكم.

﴿أفطال عليكم العهد﴾ أي: مدة غيابي عنكم ومفارقتي لكم، يقال: طال عهدي بك، أي زماني بسبب مفارقتك، والاستفهام للإنكار، يعني لم يطل عهدي بمفارقتكم، وفي المثل: وما بالعهد من قِدَم، لأن طول العهد مظنة النسيان، والعهد قريب لم يطل فكيف نسيتم؟![1].

﴿أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم﴾ أي: بل أردتم أن ينزل سبحانه عليكم غضبه وعذابه ﴿فأخلفتم موعدي﴾ [٨٦] أي: أخلفتم

---

(١) أضواء البيان ٤/٤٩٣.

موعدي الذي وعدتموني به، وهو الثبات على عبادة الله تعالى وطاعته وحده.

﴿قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا﴾ أي: ما أخلفنا موعدك باختيارنا، فلو ملكنا أمرنا ما أخلفنا موعدك، اعتذروا بأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم، وهم كاذبون بهذا الاعتذار، إذ سيأتي معنا أن هارون عليه السلام زجرهم ونهاهم عن عبادة العجل، ولكنهم أصروا على عبادته.

﴿ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم﴾ أي: حملنا ذنوباً وآثاماً بسبب ما كنا نحمل من حلي قوم فرعون، كما سبق بيان ذلك.

﴿فقذفناها﴾ في النار التي أوقدها السامري.

﴿فكذلك ألقى السامري﴾ [٨٧] أي: ألقى قبضة التراب التي كانت معه في جوف العجل الذهبي، فأثرت قبضة التراب هذه بتقدير الله تعالى في تمثال العجل، كأن شيئاً ما سرى من التراب إليه.

ويمكن تقريب هذا المعنى بما نشاهد من تأثر قطع الحديد بالمغناطيس القريب منها وتأثير بعض المواد المشعة في الأجسام التي حولها.

وقد اكتشف الإنسان المعاصر وجود بعض العناصر المشعة المؤثرة في غيرها، ويمكن لهذه الإشعاعات أن تحدث آثاراً تدميرية ضارة إن استعملت في التدمير، كما يمكن أن تحدث آثاراً إيجابية نافعة إن استعملت في البناء والتعمير.

عبادة العجل الذهبي

﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً﴾ مصنوعاً من الذهب.

﴿له خوار﴾ أي له صوت كصوت البقر، ولقد تمكن الإنسان المعاصر من صنع آلات كثيرة يمكنها أن تصدر أصواتاً مختلفة كأصوات الحيوانات.

﴿فقالوا﴾ أي: السامري ومن فُتنوا بالعجل:
﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ أي: هذا معبودكم ومعبود موسى.
﴿فنسي﴾ [٨٨] أي: نسيه موسى هنا وذهب يطلبه عند جبل الطور.

فكيف فتنوا به وعبدوه من دون الله تعالى، ودلائل العجز والضعف والنقص والحدوث ظاهرة عليه؟!!

﴿أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً﴾ أي: ألا يرون أنه لا يكلمهم ولا يرد عليهم جواباً ﴿ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾ [٨٩] أي: ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً أو يجلب لهم نفعاً، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يرو أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين﴾(١) وقال أيضاً: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾(٢).

موقف هارون

ولم يقصر هارون عليه السلام في نهيهم عن عبادة العجل، وسجل الله سبحانه له ذلك فقال: ﴿ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به﴾ أي ابتليتم بعبادة العجل، واختبرتم به فلا تعبدوه.

﴿وإن ربكم الرحمٰن فاتبعوني﴾ في عبادة الرحمٰن وحده.
﴿وأطيعوا أمري﴾[٩٠].

ولم يلق عليه السلام منهم أدنى استجابة، وضاعت كلماته في خضم الفتنة الطاغية التي غلبت عليهم، وأجابوه بوقاحة وجرأة:

﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين﴾ أي: لن نزال على عبادة العجل مقيمين.

---

(١) الأعراف: الآية ١٤٨.
(٢) البقرة: الآية ٩٢.

﴿حتى يرجع إلينا موسى﴾ [٩١].

وألقى موسى عليه السلام ألواح التوراة من يده بسبب شدة غضبه، وقبض بيديه رأس أخيه هارون، وأخذ يجذبه ويشده إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ الآية[١].

﴿قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا﴾ [٩٢] بعبادة العجل.

﴿ألا تتبعن﴾ أي: تتبع أمري ووصيتي التي أوصيتك بها.

وكان موسى عليه السلام قد أوصى هارون عندما استخلفه في غيابه على بني إسرائيل.

﴿وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾[٢].

﴿أفعصيت أمري﴾ [٩٣] الذي أمرتك به.

وأجابه هارون عليه السلام مترفقاً مستعطفاً ورأسه بين يديه:

﴿قال يا ابن أم﴾ ذكر الأم ترقيقاً لقلب موسى عليه.

﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ إن قاتلت بعضهم ببعض.

﴿ولم ترقب قولي﴾ [٩٤] وهو الوصية بالإصلاح، فإن الإصلاح لا يكون إلا بمداراتهم والصبر عليهم حتى ترجع.

وأضاف هارون إلى قوله هذا ما حكاه سبحانه عنه في موضع آخر:

﴿قال ابن أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾[٣].

---

(١) الأعراف: الآية ١٥٠.

(٢) الأعراف: الآية ١٤٢.

(٣) الأعراف: الآية ١٥٠.

وقبل موسى اعتذار أخيه هارون عليهما السلام، واقتنع بسلامة موقفه فترك رأسه، وأقبل على الله تعالى داعياً يسأله الرحمة له ولأخيه فقط: ﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾[1] كأنه عليه السلام رأى أن بني إسرائيل لا يستحقون مغفرة ولا رحمة بسبب الجريمة الكبرى التي أحدثوها بعبادة العجل.

شقاء وطرد وحرمان

والتفت موسى بعد ذلك إلى رأس الفتنة السامري يسأله مستجوباً: ﴿قال ما خطبك يا سامري﴾ [٩٥] أي: ما شأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟

﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾ أي: رأيت شيئاً لم يره غيري، وهو أثر الملك في الأرض التي يمشي عليها.

﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول﴾ أي: فأخذت قبضة من تراب الأرض التي يمشي عليها الملك المرسل.

﴿فنبذتها﴾ ألقيتها في تمثال العجل الذهبي.

﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ [٩٦] أي: وهذا أمر زينته لي نفسي.

هكذا أقر السامري بجريمته، وبين أن الذي دفعه إليه نابع من أعماق نفسه، وكأن قصة موسى مع السامري ذكرت في السورة بكل هذه التفاصيل لإظهار هذه الحقيقة، وهي أن ضلال الإنسان وشقاءه يأتي من داخل نفسه، من كسبه واختياره.

أقر السامري بجريمته ودافعه الذي دفعه إليها دون أن تبدر منه أي بادرة تدل على ندمه وتوبته، وكأنه بقوله ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ معجب بنفسه وبعمله.

---

(١) الأعراف: الآية ١٥١.

فما كان من موسى عليه السلام في مقابل هذا الإعجاب بالنفس والإصرار على الكفر إلا أن أصدر عليه هذا الحكم الرهيب الذي يلازمه طول حياته، وهو الطرد من المجتمع البشري، والعيش بعيداً عن الناس كما تعيش الوحوش ﴿قال اذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي: لا تخالط أحداً، ولا يخالطك أحد مدى الحياة، فابتلي بالنفرة من الناس فكان إذا دنا منه أحد نأى عنه وهو يقول: ﴿لا مساس﴾ أي: لا تمسني ولا تدن مني، وعاش بعيداً عن المجتمعات البشرية في الفلوات شقياً طريداً محروماً حتى مات، والجزاء من جنس العمل، فقد أراد لنفسه المكانة بين الناس والشهرة والسمعة، فأحدث لهم ما أحدث، فعذبه الله تعالى بضد ما أراد وقصد، وهذا في الدنيا وأما بعدها ﴿وإن لك موعداً﴾ في الآخرة ﴿لن تخلفه﴾ أي: لن تستطيع أن تتخلف عنه، ولا نجاة لك منه، وهو العذاب في نار جهنم.

﴿وانظر إلى إلهك﴾ أي: معبودك، وهو العجل الذهبي.

﴿الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي: بقيت مصراً على عبادته.

﴿لنحرقنه﴾ بالمبرد حتى يصبح ذرات صغيرة.

﴿ثم لننسفنه﴾ أي لنذرين ذراته ﴿في اليم نسفاً﴾ [٩٧] في مياه البحر وبين أمواجه، فعل ذلك عليه السلام بالعجل ليظهر للذين فتنوا به شدة غبائهم، ثم التفت عليه السلام مخاطباً لهم يبين لهم المعبود الحقيقي الذي يجب عليهم أن يلتزموا بعبادته وطاعته دائماً فقال: ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو﴾ أي: لا يستحق العبادة غيره جلَّ وعلا فهو المتصف وحده بصفات الغنى والكمال والجلال.

﴿وسع كل شيء علماً﴾ [٩٨] أي: أحاط علمه سبحانه بكل المعلومات.

﴿الله الذي لا إله إلا هو﴾ إنها نفس الكلمة التي دارت في فلكها

آيات السورة، ففي أولها ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ وفي أول نداء إلهي أسمعه الحق لموسى عليه السلام ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ كما هي هنا، إنها السبيل الوحيد لسعادة الإنسان في الدارين، ولقد شقي السامري وأمثاله بإعراضهم عنها شقاءً ملازماً لهم في الدنيا والآخرة.

حاملو الأوزار

وعادت الآيات كما بدأت تخاطب النبي ﷺ في تعقيبها الأول على ما ورد في القصتين، فكأنه عليه الصلاة والسلام هو المقصود من عرض قصة موسى مع فرعون وقصته مع السامري.

﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾ أي: هكذا نقص عليك يا محمد من أخبار الأمم الماضية مواساةً لك، وزيادةً في علمك وتكثيراً لمؤيدات صدقك، وتنبيهاً وتبصيراً للمستبصرين من أمتك ﴿وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾ [٩٩] وهو القرآن الكريم، وسمي ذكراً لأنه يذكر بالله تعالى وأسمائه وصفاته، ويذكر أيضاً بعبادته وطاعته وبدينه وشريعته.

وهو سبيل الهداية والسعادة، فمن تركه وأعرض عنه شقي شقاوة الأبد.

﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ [١٠٠] أي: يحمل عقوبة باهظة ثقيلة، وقد أخبرنا سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم أن الكفار والفجار يحشرون يوم القيامة، وهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم كقوله: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾(١) وقوله أيضاً: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾(٢).

---

(١) الأنعام: الآية ٣١.

(٢) النحل: الآية ٢٥.

ويا لسوء ما يحملون، إنها أحمال وأثقال تلازمهم أبداً، لاصقة بظهورهم دائماً ﴿خالدين فيه﴾ فلا محيد لهم ولا فكاك عن العناء والشقاء بما يحملون.

﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ [١٠١] أي: بئس الحمل حملهم يوم القيامة.

النفخ في الصور

في هذا اليوم يزداد حاملو الأوزار شقاءً وعناءً بسبب أهواله وأفزاعه بالإضافة إلى ما يحملون على ظهورهم.

﴿يوم ينفخ في الصور﴾ قال ابن كثير رحمه الله: ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور؟ فقال: «قَرْنٌ يُنفخ فيه»[١].

وهذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي، وصححه ابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه» ورواه الترمذي أيضاً وحسّنه من حديث أبي سعيد مرفوعاً «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ»[٢].

﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً﴾ [١٠٢] أي: عطاشاً، قد ازرقت أعينهم من شدة العطش، أو نحشرهم مشوهين بزرقة عيونهم وسواد وجوههم[٣] ويؤيد القول الأول الآية الكريمة: ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرْداً﴾[٤] أي: عطاشاً ﴿يتخافتون بينهم﴾ أي: يتحادثون سراً بينهم لشدة خوفهم.

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/٤٩٣.
(٢) فتح الباري ١١/٣٦٨.
(٣) انظر تفسير القرطبي ١١/٢٤٤.
(٤) مريم: الآية ٨٦.

﴿إن لبثتم إلا عشراً﴾ [١٠٣] أي: ما لبثتم في الدنيا إلا عشر ليال، يستقصرون حياتهم في الدنيا بسبب ما يرون من أهوال يوم القيامة، تضاءلت الدنيا في حسهم، وقلت أيامها في مشاعرهم، حتى أصبحت أياماً قليلة في نظرهم، ومع أنهم يتحادثون سراً بينهم، الله سبحانه يسمعهم، ويعلم كلامهم، إنه سبحانه يعلم السر وأخفى.

﴿نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة﴾ أي: أصوبهم وأعقلهم.

﴿إن لبثتم إلا يوماً﴾ [١٠٤] أي: ما لبثتم في الدنيا إلا يوماً واحداً، هكذا تضاءلت أعمارهم في الدنيا في نظرهم عندما عاينوا أهوال يوم القيامة.

نسف الجبال

وكان بعض منكري يوم القيامة يسأل رسول الله ﷺ عن حال الجبال في هذا اليوم سؤال المستبعد لها والمستهزىء، بها، فما كانوا يتصورون أن تزال الجبال من مواضعها، وأجابت الآيات عن سؤالهم هذا في معرض حديثها عن أهوال يوم القيامة فلا شك أن إزالة الجبال ونسفها يزيد من أهوال هذا اليوم.

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ [١٠٥] أي: يذريها ربي بقدرته تذرية كاملة، فالنسف: التذرية، فالله سبحانه يفتت هذه الكتل الصخرية الهائلة حتى تكون كالصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾[١] ثم ينثر أجزاءها ويفرق ذراتها: ﴿وبست الجبال بساً * فكانت هباءً منبثاً﴾[٢] ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾[٣].

---

(١) القارعة: الآية ٥.

(٢) الواقعة: الآيتان ٥ ـ ٦.

(٣) النبأ: الآية ٢٠.

﴿فيذرها﴾ أي: فيترك مواضع الجبال ﴿قاعاً صفصفاً﴾ [١٠٦] سهلاً مستوياً أملس ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ [١٠٧] أي: لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً.

تلبية الدعوة

﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ الذي يدعوهم إلى أرض المحشر، لأنهم عندما يخرجون من قبورهم يتحيرون، لا يدرون أين يذهبون، يكونون حينئذ كما وصفهم الحق سبحانه ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾(١) ثم يدعوهم الداعي إلى أرض المحشر، فيؤمون صوت الداعي ويتبعونه:

﴿لا عوج له﴾ أي: لا يعدل عن إجابته واتباعه أحد، فالجميع يتوجهون مسرعين حيث يؤمرون بذلة وانكسار وخضوع، كما قال تعالى: ﴿خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾(٢).

﴿وخشعت الأصوات للرحمٰن﴾ أي: سكنت لجلاله تعالى ومهابته. ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ [١٠٨] أي: لا تسمع إلا صوتاً خفياً خافتاً، ولعله صوت خفق أقدامهم ونقلها إلى أرض المحشر.

ويخيم على أرض المحشر سكون رهيب، فلا يجرؤ أحد على كلام، ولا يتقدم أحد لشفاعة، حتى يأذن الحق سبحانه له:

﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة﴾ أي: لا تقبل فلا يجرؤ أحد عليها ﴿إلا من أذن له الرحمٰن ورضي له قولاً﴾ [١٠٩] أي: وقبل قوله في الشفاعة، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمٰن وقال صواباً﴾(٣) فلا يتقدم أحد للشفاعة إلا بإذن منه

---

(١) القارعة: الآية ٣.
(٢) القمر: الآيتان ٧ ـ ٨.
(٣) النبأ: الآية ٣٨.

سبحانه: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ الآية[1] حتى النبي ﷺ صفوته سبحانه من خلقه لا يقوم مقامه المحمود الذي يشفع فيه حتى يأذن له الحق سبحانه، قال ﷺ في حديث الشفاعة: «... فيأتوني، فأستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال لي: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يُسمع، واشفع تشفع...» الحديث[2].

وقد أحاط سبحانه علماً بحال الشافعين والمشفوع لهم، وبحال الذين لا يستحقون الشفاعة ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي: ما تقدم من أعمالهم وما تأخر، ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [١١٠] أي: لا يحيطون بالله تعالى علماً، وأنى للمخلوق أن يحيط بالخالق، وللضعيف العاجز القاصر أن يحيط بالقوي القادر القاهر.

خيبة الظالمين

﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ أي: خضعت وذلت الوجوه كلها للحي القيوم، فهو سبحانه وحده المتصف بالحياة الحقيقية التي لا موت معها، والتي لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال وانتهاء.

وهو سبحانه وحده القيوم، القائم بذاته، فلا يحتاج إلى أحد، والمقيم لغيره، فكل المخلوقات تستمد وجودها وقيامها منه جلّ وعلا، فهو الله لا إله إلا هو الحي القيوم.

﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾ [١١١] أي: وقد خسر من حمل ظلماً، والشرك بالله تعالى أقبح أنواع الظلم، وكثيراً ما أطلقت كلمة الظلم على الشرك، كقوله تعالى: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾[3] وقوله أيضاً: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا

---

(١) البقرة: الآية ٢٥٥.
(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري في كتاب الرقاق رقم ٦٥٦٥.
(٣) لقمان: الآية ١٣.

ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾[1]، وخيبة كل ظالم بقدر ما حمل من ظلم، فخيبة المشرك دائمة مؤبدة، وخيبة المؤمن العاصي مؤقتة بوقت العقوبة المقدرة لمعاصيه، إلا إذا غفر الله تعالى له وتجاوز عن معاصيه، وهذا إذا كان ظالماً لنفسه فقط أما إذا كان ظالماً لغيره، فلا بدّ أن يبرئه المظلوم من مظلمته، ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[2].

﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ [١١٢] أي: فلا يخاف أن يظلم فيزاد في سيئاته، ولا أن يهضم فينقص من حسناته لأنه سبحانه الحكم العدل المنزّه عن الظلم القائل: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾[3] ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾[4] فالمؤمن الذي لم يظلم أحداً آمِنٌ يوم القيامة من أهواله وأفزاعه ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[5].

القصة عبرية والتنزيل عربي

قص الله تعالى على النبي ﷺ أنباء السابقين كقصة موسى مع فرعون ومع السامري باللغة العربية: ومع أن القصة عبرية، فالتنزيل عربي مبين،

---

(١) يونس: الآية ١٠٦.
(٢) صحيح البخاري في كتاب المظالم رقم ٢٤٤٩.
(٣) يونس: الآية ٤٤.
(٤) النساء: الآية ٤٠.
(٥) الأنعام: الآية ٨٢.

وهذا يدل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى العليم الحكيم، ولهذا قال تعالى في التعقيب الثاني على قصة موسى:

﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً﴾ في أعلى درجات البلاغة والفصاحة والبيان. وقد أكد سبحانه هذه الحقيقة في عدد من الآيات، منها قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾(١) وقوله أيضاً: ﴿تنزيل من الرحمٰن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾(٢) وقوله أيضاً: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾(٣).

وأنزل الله تعالى في صدر سورة يوسف قوله الكريم: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلَّكم تعقلون﴾(٤) وأشار بذلك إلى أن قصة يوسف أيضاً عبرية وأنزلها سبحانه باللغة العربية وتحدى ببلاغتها فصحاء العرب وأدباءهم وشعراءهم.

وكل ذلك يؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله على الرسول العربي النبي الأمي ﷺ.

﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ أي: رددنا فيه الوعيد، وكررناه بأساليب كثيرة متنوعة، هي الغاية في البلاغة والفصاحة والإتقان.

﴿لعلَّهم يتقون﴾ الكفر والمعاصي.

﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾ [١١٣] أي: عظة وتذكرة تدفعهم إلى طاعة الله وعبادته وحده أو يذكرهم بالله تعالى وصفاته العليا وأسمائه الحسنى ودلائل وجوده جلَّ وعلا.

---

(١) الشعراء: الآيات ١٩٢ ـ ١٩٥.
(٢) فصلت: الآيتان ٢ ـ ٣.
(٣) النحل: الآية ١٠٣.
(٤) يوسف: الآية ٢.

ولا شك أن القرآن الكريم أعظم مذكر بالله تعالى، وقد سماه سبحانه ذكْراً كما سبق معنا في قوله: ﴿وآتيناك من لدنا ذكراً﴾، ولعلّ هذا سر إسناد فعل الذكر إلى القرآن نفسه ﴿يحدث لهم ذكراً﴾ بينما أسند فعل التقوى إليهم: ﴿لعلَّهم يتقون﴾.

الملك الحق سبحانه

وعظمة القرآن الكريم من عظمة منزله جلَّ وعلا، ولهذا عظم الله نفسه في سياق الآيات التي تتحدث عن القرآن الكريم، فقال:

﴿فتعالى الله﴾ أي جلَّ الله وعظم وارتفع وتنزّه في ذاته وصفاته وأفعاله عن مماثلة المخلوقين وعن مماثلة صفاتهم وأفعالهم، وتنزّه أيضاً عن إلحاد الملحدين، وعما يقوله المشركون والجاحدون، وفيه تنبيه عما يلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده[1].

﴿الملك﴾ المتصرف بالأمر والنهي، الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده، وهذا يدل على أن قوارع القرآن سياسات إلهية تتضمن صلاح الدارين لا يحيد عنها إلا مخذول هالك[2].

﴿الحق﴾ أي: الثابت في ذاته وصفاته، أو الملك الحق، فملكيته سبحانه حق يستحقها لذاته وحده، فهو جلَّ وعلا الملك على الحقيقة، وأما غيره فملكهم مؤقت زائل محدود، وقد مرّ معنا قول السحرة لفرعون:

﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»[3].

---

(١) انظر الخازن والبيضاوي ٤/٢٢١.

(٢) روح المعاني ٦/٢٦٨.

(٣) صحيح البخاري في كتاب الرقاق رقم ٦٥١٩.

وبعد التعظيم والتمجيد لذاته سبحانه التوجيه والإرشاد لنبيه ﷺ الذي أنزل عليه القرآن الكريم، والمخاطب بآيات السورة من أولها كما مرّ معنا.

﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ فقد كان ﷺ حريصاً أشد الحرص على استيعاب القرآن الكريم وحفظه فور تلقيه من أمين الوحي جبريل عليه السلام، فكان يردد كلماته وهي تلقى عليه، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه، فقال: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه﴾(١) وقال سبحانه هنا:

﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ أي: من قبل أن يفرغ جبريل من قراءته وتبليغه، ويتفق هـذا المعنى تماماً مع ما قرّره سبحانه في أول السورة في قوله ﴿مـا أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ فالله سبحانه وضع عن النبي ﷺ مئونة حفظه واستيعابه، وتكفل بتحفيظه للنبي ﷺ وجمعه في قلبه الشريف كما مرّ معنا في قوله: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ وقوله أيضاً: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾(٢).

فضل العلم

﴿وقل رب زدني علماً﴾ [١١٤] أي: زدني علماً بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا وكمالاتك التي لا تعد ولا تحصى.

ومن المعلوم أنه كلما ازداد الإنسان علماً بالله تعالى ازداد خشية منه وتعظيماً له جلَّ جلاله، ونبينا ﷺ أعلم الخلق بالله جلَّ وعلا وأشدهم له تعظيماً وخشية، وكان يقول: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا».

---

(١) القيامة: الآيتان ١٦ - ١٧ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٤٩٥.
(٢) الأعلى: الآية ٦.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»(١).

أو رب زدني علماً من الوحي الذي تنزله علي، ولا شك أن الوحي علم، وهو أوثق مصادر العلم وأعلاها وأعزها وأشرفها(٢).

أو زدني علماً بالقرآن الكريم الذي لا تنتهي معانيه، ولا يشبع منه العلماء.

أو أي علم نافع في ديني ودنياي، وقد جاء في الحديث الشريف أنه ﷺ كان يقول: «اللّهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً»(٣).

ودلت الآية على فضل العلم حيث أمر ﷺ بطلب زيادته، وذكر بعضهم أنه ما أمر عليه الصلاة والسلام بطلب الزيادة في شيء إلا العلم(٤).

قصة آدم مع الشيطان

ثم عرضت الآيات الكريمة جانباً من قصة آدم عليه السلام مع الشيطان، لتبين من خلال ذلك أن سعادة الإنسان في طاعته لله تعالى، وفي وقوفه عند الحدود التي شرعها له، وأن الله تعالى الرحمن أعطى الإنسان كل أسباب الراحة والسعادة، وأنه لا يشقى الإنسان إلا عندما يعرض عن عبادة ربه وطاعته ويغفل عن ذكره، ويتجاوز الحدود التي شرعها الحق

---

(١) صحيح البخاري في كتاب الإيمان ٢٠.
(٢) انظر كتاب الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف.
(٣) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.
(٤) روح المعاني ٦/٢٦٨.

سبحانه له، وهذا هو موضوع السورة الأساسي كما بينا في أول الكتاب.

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل﴾ أي: وصيناه أن لا يأكل من الشجرة، كما ذكره سبحانه في قوله: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾(١).

﴿فنسي﴾ أي: فترك الوصية وغفل عنها.

﴿ولم نجد له عزماً﴾ [١١٥] أي: لم نجد له ثباتاً وصبراً عن الأكل من الشجرة.

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ سجود التكريم والتحية، وهذا قبل أن يخالف أمر الله تعالى ويأكل من الشجرة، عندما أظهر الله فضله على الملائكة بما علمه سبحانه، فصّل ذلك سبحانه في موضع آخر فقال: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾(٢).

﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ الذي كان يعيش مع الملائكة، وشمله الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم.

﴿أبى﴾ [١١٦] أن يسجد تكبراً كما مرّ معنا، وكما في قوله أيضاً: ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾(٣).

---

(١) الأعراف الآية ١٩، وانظر أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف.
(٢) البقرة: الآيات ٣١ ـ ٣٤.
(٣) الأعراف: الآية ١٢.

﴿فقلنا يا آدم إن هذا﴾ أي: إبليس ﴿عدو لك ولزوجك﴾ فكونا على حذر منه.

﴿فلا يخرجنكما من الجنة﴾ أي: فلا تطيعاه حتى لا يتسبب في إخراجكما من الجنة.

﴿فتشقى﴾ [١١٧] أي: فتقع في الشقاء والتعب والعناء إذا أخرجتما من الجنة.

وسبب هذا الشقاء والعناء أن أسباب العيش في الأرض غير ميسرة، فلا بدّ أن يتعب الإنسان وينصب في تحصيلها والوصول إليها، وتعب الرجل وشقاؤه في هذا المجال أكثر من تعب المرأة لأنه هو المكلف بالإنفاق على المرأة، ولعلّ ذلك سبب إسناد الشقاء إلى آدم دون حواء في قوله ﴿فتشقى﴾.

والحال في الجنة يختلف، فالعيش فيها سهل ميسور، لا تعب فيها ولا نصب، وكل ما يحتاجه الإنسان فيها حاضر موفور. قال تعالى:

﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾ [١١٨] لكثرة ما فيها من طعام ولباس.

﴿وأنك لا تظمأ فيها﴾ أي: لا تعطش، فالأشربة فيها كثيرة ومتنوعة.

﴿ولا تضحى﴾ [١١٩] أي: ولا يصيبك فيها حر الشمس، لأن ظلها ممدود فلا تحتاج إلى أسباب الوقاية من الحر ولا من البرد، لاعتدال مناخها.

﴿فوسوس إليه الشيطان﴾ أي: أنهى الشيطان إلى آدم وسوسته وأوصلها إليه، والوسوسة: الصوت الخفي.

الأكل من الشجرة

﴿قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد﴾ أي: الشجرة التي لا يموت من أكل منها.

﴿وملك لا يبلى﴾ [١٢٠] أي: لا يبيد ولا يفنى.

والإنسان بأصل فطرته يحب البقاء ويكره الموت والفناء، وهي نقطة ضعف كبيرة في الإنسان، اكتشفها الخبيث في الإنسان، وعن طريقها تمكن من إغواء آدم وحواء. قال تعالى: ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾[١].

هكذا غرهما بالأماني والأيمان الكاذبة حتى أكلا من الشجرة.

﴿فأكلا منها﴾ فماذا كانت النتيجة:

﴿فبدت لهما سوءاتهما﴾ أي: ظهرت لهما عوراتهما، وزالت عنهما الحرمة والكرامة التي كانا يتمتعان بها من قبل، إذ كانا لا يريان عوراتهما تكريماً لهما.

وهذا أول شيء أصابهما من شؤم المعصية، نُزع عنهما لباس الجنة، ورأى كل منهما عورة الآخر، فغلب عليهما الحياء من الله تعالى، فأخذا يبحثان عن شيء يستتران به، فلم يجدا غير ورق شجر الجنة.

﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ أي: شرعا يجمعان ورق الجنة، ورقة فوق ورقة لكي يستترا به.

﴿وعصى آدم ربه﴾ بالأكل من الشجرة.

﴿فغوى﴾ [١٢١] أي: ضل عن طريق الرشد، واغتر بكلام عدوه.

ونسب سبحانه العصيان والغواية إلى آدم وحده دون حواء، مع أنها أكلت معه، لأن آدم هو المقصود في القصة، وحواء تبع له في الحكم[٢].

---

(١) الأعراف: الآيتان ٢٠ - ٢١.

(٢) انظر روح المعاني ٦/٢٧٥.

توبـة وهـداية

﴿ثم اجتباه ربه﴾ أي: اختاره سبحانه للنبوة بعد أن أهبطه إلى الأرض، ففعل المعصية صدر منه قبل النبوة.

﴿فتاب عليه﴾ أي: قبل سبحانه توبة آدم وعفا عنه، كما في قوله تعالى:

﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[1].

وهي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ليستغفره بها ويتوب عليه، ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[2].

﴿وهدى﴾ [١٢٢] أي: ووفقه سبحانه أيضاً في الثبات والاستقامة، أو بين له سبيل الهداية والسعادة بما أوحى إليه.

ثم أمرهما سبحانه بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض:

﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو﴾ بسبب ابتلاء بعضكم ببعض، فحياة الإنسان في الأرض حياة ابتلاء واختبار، وقد قدّر سبحانه أن يكون ابتلاء الناس بعداوة الشيطان لهم، وكذلك ابتلاؤهم ببعضهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾[3].

﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ بواسطة الرسل والكتب المنزلة عليهم.

﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ [١٢٣] لأنه سار على طريق الهداية والسعادة.

---

(١) الأعراف: الآية ٢٣.

(٢) البقرة: الآية ٣٧.

(٣) الفرقان: الآية ٢٠.

الشقاء في الدنيا والآخرة

﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ أي: عن الكتاب الذي فيه ذكري وعبادتي وطاعتي وهو القرآن الكريم، كما مرّ معنا في الآية: ﴿وقد آتيناك من لدنا ذكرا﴾ وبيّن سبحانه هناك شقاء المعرضين عن القرآن وعذابهم يوم القيامة فقال:

﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ وأضاف هنا سبحانه إلى بيان شقائهم في الآخرة بيان شقائهم وتعاستهم في الدنيا، فقال:

﴿فإن له معيشة ضنكاً﴾ أي ضيقة شديدة قاسية تعيسة، شقية.

فلا سعادة للإنسان إلا في ظل دين الله تعالى وشرعه، ومهما أوتي الإنسان من أسباب الغنى والمتاع والسرف والترف، فإنه يبقى شقياً قلقاً مضطرباً مهموماً، ما دام بعيداً عن حلاوة الإيمان وسكينته، وبرد اليقين وطمأنينته، ولذة ذكره سبحانه وعبادته.

الحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ضنك مهما يكن فيها من سعة المتاع، إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه... ضنك الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت، وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله... إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان[1].

إن أجمل تصوير لشقاء الإنسان المعرض عن طاعة الله وعبادته ورد في قوله تعالى ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/٢٣٥٥.

الحساب﴾[1]، ذلك هو سبب شقائهم وتعاستهم، ينصبون ويتعبون وراء آمال براقة خادعة، ثم يسقطون على الطريق ليواجهوا بعد ذلك مسؤوليتهم أمام ربهم سبحانه.

الجزاء من جنس العمل

وبيّن سبحانه حالهم عندما يحشرون يوم القيامة فقال:

﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [١٢٤] أي: أعمى البصر كما كان في الدنيا أعمى البصيرة، فالجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾[2] وقال أيضاً: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾[3] وهذا في أول الحشر أما بعد ذلك فدلت الآيات على أنهم يبصرون ويسمعون ويتكلمون كقوله تعالى:

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾[4].

﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾ [١٢٥] في الدنيا.

﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾ أي: فتركتها وأعرضت عنها.

﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ [١٢٦] أي: وفي مقابل إعراضك عن آياتنا، فإنك تعامل اليوم معاملة المنسي المهمل، فتترك في العذاب والشقاء، وقد أكد سبحانه هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾[5] وقوله أيضاً: ﴿وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم

---

(١) النور: الآية ٣٩.
(٢) الإسراء: الآية ٧٢.
(٣) الإسراء: الآية ٩٧.
(٤) مريم: الآية ٣٨.
(٥) السجدة: الآية ١٤.

هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾[1].

ومرّ معنا أنه سبحانه وتعالى لا ينسى في قوله: ﴿في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ فهو سبحانه منزّه عن كل صفات النقص.

﴿وكذلك﴾ أي: وهكذا ﴿نجزي من أسرف﴾ فتجاوز الحد وطغى.

﴿ولم يؤمن بآيات ربه﴾ بل كذب بها وأعرض عنها، فنجعل حياته وعيشته في الدنيا تعيسة شقية ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ [١٢٧] من شقاء الدنيا وعذابها، فالله سبحانه يجمع للمكذبين بآياته بين شقاء الدنيا وشقاء الآخرة.

الاتعـاظ بالأولـين

والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، وفي أخبار الأمم الماضيـة مواعظ كثيرة، وعبر بليغة، ولهذا قص الله علينا في القرآن الكريم كثيراً من قصص الأولين وأخبارهم، كما في هذه السورة، ودعانا سبحانه إلى الاتعاظ بمن سبقنا، قال تعالى:

﴿أفلم يهد لهم﴾ أي: أفلم يبين القرآن الكريم للكفار المعرضين المكذبين.

﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ أي: ما أكثر الأجيال البشرية التي أهلكناها بسبب كفرهم وطغيانهم.

﴿يمشون في مساكنهم﴾ أي: والكفار المعرضون يمشون في مساكن أولئك الهالكين كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾[2].

﴿إنّ في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ [١٢٨] أي: إن في النظر في

---

(١) الجاثية: الآية ٣٤.

(٢) إبراهيم: الآية ٤٥.

مصائر الأمم السابقة لدلائل ومواعظ وعبراً لأصحاب العقول الناهية عن التغافل والطغيان، فلا ينبغي لهؤلاء الكفار أن يغتروا بإمهال الله تعالى لهم وتأخيره العذاب عنهم، إنه قدر سبق به علمه سبحانه وتعلقت به مشيئته، ولولاه لعاجلهم بالعقوبة:

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بتأخير العذاب عنهم.

﴿لكان لزاماً﴾ أي: لكان العذاب ملازماً لهم، فاللزام مصدر لازم يلازم ملازمة ولزاماً.

﴿وأجل مسمى﴾ [١٢٩] أي: ولولا الأجل المسمى أيضاً لكان عذابهم لزاماً ففي الآية تقديم وتأخير.

الصلاة والرضا

ومن المناسب عندما بيّن سبحانه أنه لا يعاجلهم بالعقوبة وأنه يؤخرهم إلى أجل مسمى، أن يأمر تعالى النبي ﷺ بالصبر على أذاهم وما يسمع من أقوالهم وعنادهم على سبيل المواساة له والتثبيت، فما كان ﷺ يستعجل عذابهم، لأنه نبي الرحمة، بل كان يتألم ويحزن عليهم بسبب إعراضهم، كما مرّ معنا في أول السورة.

﴿فاصبر على ما يقولون﴾ وما أكثر ما قالوا في حقه ﷺ من أكاذيب وافتراءات، ستأتي معنا بعضها في أول سورة الأنبياء في الآية الكريمة: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾[١] فلا تلتفت إلى أقوالهم ولا تأبه لهم، واستعن على ذلك بالصلاة والذكر والتسبيح: ﴿وسبّح بحمد ربك﴾ أي: وصل حامداً لربك جلَّ وعلا، فقد يراد بالتسبيح الصلاة، قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رسول الله ﷺ سبَّح سُبحة الضحى، وإني لأسبحها[٢].

(١) الأنبياء: الآية ٥.

(٢) صحيح البخاري في كتاب التهجد ١١٧٧.

﴿قبل طلوع الشمس﴾ أي: صلاة الصبح ﴿وقبل غروبها﴾ أي: صلاة العصر.

﴿ومن آناء الليل﴾ أي: ومن ساعات الليل.

﴿فسبّح﴾ أي: فصل، ولعلّ المراد صلاة العشاء، أو التهجد في الليل.

﴿وأطراف النهار﴾ عند الزوال، وهو طرف النصف الأول من النهار، وقت صلاة الظهر، وعند الغروب، وقت صلاة المغرب.

وبهذا تكون الآية قد ذكرت الصلوات الخمس المفروضة.

﴿لعلك ترضى﴾ [١٣٠] قرئت بفتح التاء وبضمها.

ومعناها بالفتح: لعلّك ترضى بعطاء الله تعالى وفضله، كما قال سبحانه ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾[١].

ومعناها بالضم: لعلّ الله أن يرضيك بسبب كثرة صلاتك وتسبيحك، والمعنيان متفقان، وذلك أن الله تعالى إذا أرضاه، فلا شك أنه يرضى، وأنه إذا رضي فقد أرضاه[٢].

الرضا والغنى

وأقوال أكثر المفسرين تتجه إلى حصر الرضا بالآخرة، مع أن الكلمة مطلقة تشمل الرضا في الدنيا والآخرة.

وقد منّ الله تعالى على النبي ﷺ بالرضا في الدنيا وفي الآخرة: في الدنيا بالعز والنصر، وبالقناعة وغنى النفس، فما توفي ﷺ حتى قرت عينه برؤية دين الله تعالى ظاهراً وكلمته سبحانه عالية عزيزة.

ولقد آتاه ربه قناعة في نفسه وغنى في قلبه حتى كان ﷺ يقول:

(١) الضحى: الآية ٥.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٦/١٦٩.

«ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»[1].

فالمتصف بغنى النفس يكون قانعاً بما رزقه الله، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلح في الطلب، ولا يلحف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له، فكأنه واجد أبداً، والمتصف بفقر النفس على الضد منه لكونه لا يقنع بما أعطى، بل هو أبداً في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه... ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره، علماً بأن الذي عند الله خير وأبقى[2].

القناعة والرضا من أهم أسباب السعادة الدنيوية، ولا يشعر المؤمن براحة القلب والنفس إلا بهما، وهذا ما أبرزته الآيات وهي تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿ولا تمدن عينيك﴾ أي: لا تنظر نظر الرغبة والميل.

﴿إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ أي: إلى ما أعطينا بعض الناس من متاع الدنيا وزينتها وزخارفها.

﴿لنفتنهم فيه﴾ أي: لنختبرهم بما أعطيناهم، هل يشكرون أم يكفرون؟

فالعطاء في الدنيا للاختبار لا للتكريم، ويخطىء الذين يظنون أن توسعة الرزق عليهم في الدنيا دليل على كرامتهم عند الله تعالى القائل: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾[3].

فالدنيا لهوانها على الله تعالى يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب، كما قال

---

(١) البخاري في كتاب الرقاق ٦٤٤٦.

(٢) فتح الباري ١١/٢٧٢.

(٣) المؤمنون: الآيتان ٥٦ - ٥٧.

سبحانه: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ [1] أما الآخرة فلا يعطيها إلا لأحبابه.

﴿ورزق ربك﴾ الذي قدّره سبحانه لك، والمراد منه إما ثوابه في الآخرة وإما الغنى والقناعة في الدنيا[2].

﴿خير وأبقى﴾ [١٣١] أي: أفضل وأدوم.

ولا شك أن التعلق بالدنيا يؤدي إلى الطمع والجشع والحسد، وهي أهم أسباب التنافس والخصام والاختلاف بين الناس، وكم أورثتهم شقاءً وعناءً وكوارث ونكبات.

بينما القناعة والرضى يمنحان صاحبهما هدوء النفس وراحة القلب ويبعدانه عن القلق والهم وتعب الأعصاب.

وما أجمل قول النبي ﷺ في هذا المعنى: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» [3] والرزق الكفاف: ما يكفي صاحبه ويغنيه عن الناس.

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام: «اللّهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»[4].

والقوت: ما يقوت البدن، ويكف عن الحاجة، وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغنى والفقر جميعاً[5].

وهذا يدل على أنه ﷺ كان أبعد الناس عن التطلع للدنيا، والخطاب في الآية له عليه الصلاة والسلام ليكون أسوتهم وقدوتهم.

---

(١) الإسراء: الآية ٢٠.
(٢) انظر زاد المسير ٥/٣٣٥.
(٣) صحيح مسلم في كتاب الزكاة رقم ١٠٥٦.
(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم في الزكاة ١٠٥٥.
(٥) فتح الباري ١١/٢٩٣.

﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أي: بالصلاة المفروضة، والمراد أهل بيته الذين يعيشون معه فيه. ويؤمر بأدائها الصبي وإن لم تجب عليه ليعتاد عليها كما في الحديث الشريف: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»(١).

ولا شك أن البيت الذي تؤدى فيه الصلاة ويذكر فيه الله سبحانه، تتنزل فيه الرحمة، وتغشاه الملائكة، وتنأى عنه الشياطين، بينما البيت الذي لا تقام فيه الصلاة تغلب عليه الوحشة، وعلى أهله الجفوة والقسوة، وتغشاه الشياطين، ويزداد فيه الشر والفساد والخصام والاختلاف، ولهذا فإن صلاة التطوع في البيوت أفضل من صلاتها في المساجد، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبوراً»(٢).

الصلاة وطلب الرزق

﴿واصطبر عليها﴾ أي: داوم عليها، والمراد أداء الصلوات دائماً في أوقاتها المعينة لها لاستغراق الليل والنهار بها(٢) وأكد هذا المعنى الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»(٣).

فلو كان المراد من الآية استغراق كل الوقت بالصلاة ما ذكر ﷺ بعد ذلك بر الوالدين والجهاد في سبيل الله. وقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿لا نسألك رزقاً نحن نرزقك﴾ دفع لما عسى أن يخطر ببال أحد من أن المداومة على الصلاة ربما تضر بأمر طلب الرزق(٤) فكأنه قال: داوموا

---

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٢) انظر روح المعاني ٦/٢٨٥.

(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري في التهجد ١١٨٧.

(٤) مسلم في الإيمان ١٣٧.

على الصلاة ولا يشغلنكم الاكتساب وطلب الرزق عنها، فإن الرزق بيد الله تعالى فإذا ما حان وقتها فاتركوا العمل وطلب الرزق وانصرفوا إلى الصلاة.

قال تعالى في صلاة الجمعة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون﴾[١].

فالإسلام دين النظام، نظم حياة الإنسان، فجعل للعبادة بمعناها الخاص وقتاً معيناً محدداً، كما مرّ معنا في أوقات الصلوات المفروضة: ﴿وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلّك ترضى﴾.

وكذلك خصص لبقية العبادات أوقاتاً مخصوصة كالصيام والحج، وأمر الإنسان في غير أوقات العبادة المخصوصة أن يسعى في تحصيل رزقه، وألا يكون عالة على غيره، قال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[٢].

ويعد سعي الإنسان في تحصيل رزقه عبادة إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى بإعفاف نفسه وسعيه على عياله المكلف بالإنفاق عليهم، قال ﷺ: «إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحتسبها، كانت له صدقة»[٣].

وتوعد النبي ﷺ الرجل الخامل الكسول الذي يتقاعس عن القيام

---

(١) الجمعة: الآيتان ٩ ـ ١٠.
(٢) الملك: الآية ١٥.
(٣) صحيح البخاري في كتاب النفقات ٥٣٥١.

بمسؤوليته نحو أهله وأولاده فقال: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»[1].

﴿والعاقبة للتقوى﴾ [١٣٢] أي: العاقبة الحسنة الطيبة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى، والآيات في هذا المعنى كثيرة، يكفي منها قوله تعالى:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾[2].

القرآن الكريم أعظم المعجزات

ختم سبحانه السورة بذكر صورة من صور عناد المشركين وبعض أقوالهم في حق النبي ﷺ بمناسبة أمره سبحانه له بالصبر على ما يقولون، فقال تعالى ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه﴾ أي: هلا يأتينا محمد - ﷺ - بمعجزة من ربه تدل على صدقه في دعوى النبوة، قالوا ذلك وهم يتغافلون عن المعجزة الكبرى التي تحداهم الله تعالى بها، وهي القرآن الكريم.

ولهذا رد سبحانه عليهم بتذكيرهم بمعجزة القرآن الكريم الكبرى التي تغافلوا عنها فقال: ﴿أولم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى﴾ [١٣٣] أي: ألم تأتهم معجزة هي أم المعجزات وأعظمها وأدومها، لأنها باقية خالدة، وهي معجزة القرآن الكريم، المشتمل على زبدة ما في التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، والمصدق لها والشاهد على صحتها؟ وهذا كقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذيرٌ مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك

---

(١) رواه أبو داود والنسائي.
(٢) الطلاق: الآيتان ٢ - ٣.

الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾[1].

وهكذا عادت آيات السورة إلى القرآن الكريم كما بدأت به في قوله تعالى ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ فهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى ليكون سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، وهو أيضاً المعجزة الكبرى الخالدة للنبي ﷺ على مدى العصور وكر الدهور.

قامت الحجة وأنزل القرآن الكريم

فهو حجة الله تعالى البالغة على الناس، لا عذر لهم بعد إنزاله أبداً، ولهذا أبقاه الله تعالى في الأرض كما أنزله وتكفل بحفظه، وهو سبحانه العليم الحكيم يعلم أنه لو لم ينزله لاعتذروا بعدم نزوله، ولهذا قال: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله﴾ أي: من قبل نزول القرآن الكريم وبعثة النبي ﷺ ﴿لقالوا﴾ يوم القيامة.

﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾ بكتاب منزل عليه.

﴿فَنَتَّبِعَ آياتك﴾ التي جاءنا بها ﴿من قبل أن نذلَّ﴾ بعذاب الدنيا وشقائها وتعاستها.

﴿ونخزى﴾ [١٣٤] بعذاب الآخرة في النار، والخزي: أشد أنواع الذلة وها هو القرآن الكريم بحمد لله تعالى قد أنزل، والرسول الكريم خاتم النبيّين ﷺ قد بعث، وقام ﷺ بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فأقام الله به الحجة على الناس، فلا عذر لأحد بعد ذلك وما على الرسول ﷺ إلا أن يقول لهم بعد أن بلغهم:

﴿قل كل متربص﴾ أي: كل واحد منا ومنكم منتظر.

﴿فتربصوا﴾ أي: فانتظروا، وهو أمر فيه تهديد ووعيد.

---

(١) العنكبوت: الآيتان ٥٠ ـ ٥١.

﴿فستعلمون﴾ عن قريب.

﴿من أصحاب الصراط السوي﴾ المستقيم المؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿ومن اهتدى﴾ [١٣٥] أي: ومن عرف الصراط وسار عليه وتمسك بهديه حتى يلقى الله تعالى.

أسأله سبحانه الهداية

والثبات والتوفيق

مراجع الكتاب

- صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري لابن حجر، توزيع رئاسة إدارات البحوث.
- صحيح مسلم تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، توزيع رئاسة إدارات البحوث.
- الترهيب والترغيب للمنذري، الطبعة القطرية.
- تيسير الوصول للشيباني، طبع البابي الحلبي.
- روح المعاني للآلوسي، دار الفكر.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق أبو إسحاق أطفيش.
- أضواء البيان للشنقيطي، طبعة الوقف.
- في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق.
- مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، دار القرآن.
- تفسير البيضاوي المطبوع مع مجموعة من التفاسير، دار إحياء التراث العربي.
- تفسير النسفي المطبوع مع مجموعة من التفاسير، دار إحياء التراث العربي.
- تفسير الخازن المطبوع مع مجموعة من التفاسير، دار إحياء التراث العربي.
- جامع البيان للطبري، نشر دار المعرفة بيروت.
- تفسير النيسابوري، المطبوع على حاشية جامع البيان.
- تفسير أبي السعود، نشر دار إحياء التراث العربي بيروت.
- نظم الدرر للبقاعي، الطبعة الأولى في الهند.
- تفسير الفخر الرازي، نشر دار الفكر.
- زاد المسير لابن الجوزي، نشر المكتب الإسلامي.
- فتح القدير للشوكاني، توزيع مكتبة المعارف الرياض.
- أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف للمؤلف.

الفهـــرس

المقدمة	٥
موضوع السورة	٧
الفصـل الأول	٩
طه	١١
القرآن سعادة لا شقاء	١٢
سبيل السعادة	١٤
كمال صفاته جل وعلا	١٥
كمال أسمائه سبحانه	١٧
قصة موسىٰ وفرعون	١٩
تمهيد	١٩
أعظم حوادث القصة	١٩
ضعف وافتقار وحيرة	٢٠
آنست ناراً	٢١
في مقام النداء والنجوىٰ	٢٢
معرفة الله تعالىٰ	٢٣
عبادته سبحانه	٢٤
ذكره سبحانه	٢٥
المسؤولية والجزاء	٢٧
تحذير	٢٩
تأنيس وتسكين	٢٩
المعجزة الأولىٰ	٣٠
المعجزة الثانية	٣١
الرسالة	٣٢

سؤال المعونة ٣٣
سوابق الفضل الإلهي ٣٦
الحب من جنود الله تعالىٰ ٣٧
تحريم المراضع ٣٨
الابتلاء بالقتل ٣٩
موعد وقدر ٤٠
عدة الداعية وأسلوبه في الدعوة ٤١
تثبيت وتطمين ٤٣
مواجهة الطاغية ٤٣
حوار الإيمان مع الكفر ٤٥
جواب مفحم ٤٧
من دلائل وجوده سبحانه وجوده ٤٨
الزوجية في المخلوقات ٤٩
الإنسان والأرض ٥١
عناد وجحود ٥١
الاستعداد ورسم الخطط ٥٣
الجولة الأولىٰ ٥٥
الجولة الثانية ٥٦
السجود لله تعالىٰ ٥٧
القمع والإرهاب ٥٧
الإيمان يتحدىٰ الطغيان ٥٨
عاقبة الطغيان ٦٠
تحذير وترغيب ٦١

الفصل الثاني
قصة موسى مع السامري ٦٣
قبضة السامري ٦٦

اعتذار كاذب	٦٧
عبادة العجل الذهبي	٦٨
موقف هارون	٦٩
شقاء وطرد وحرمان	٧١
حاملو الأوزار	٧٣
النفخ في الصور	٧٤
نسف الجبال	٧٥
تلبية الدعوة	٧٦
خيبة الظالمين	٧٧
القصة عبرية والتنزيل عربي	٧٨
الملك الحق سبحانه	٨٠
فضل العلم	٨١
قصة آدم مع الشيطان	٨٢
الأكل من الشجرة	٨٤
توبة وهداية	٨٦
الشقاء في الدنيا والآخرة	٨٧
الجزاء من جنس العمل	٨٨
الاتعاظ بالأولين	٨٩
الصلاة والرضا	٩٠
الرضا والغنىٰ	٩١
الصلاة وطلب الرزق	٩٤
القرآن الكريم أعظم المعجزات	٩٦
قامت الحجة وأنزل القرآن الكريم	٩٧
مراجع الكتب	٩٩
الفهرس	١٠١